ربيع حسين العلي

الإنسانية القاتلة

صراع الوباء والحب

بِبْلُومَانيَا

رواية

الإنسانية القاتلة

صراع الوباء والحب

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: الإنسانية القاتلة

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

- **المؤلف: ربيع حسين العلي**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1447 هـ - 2026 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- رقم الإيداع: 13652 / 2020
- **الترقيم الدولي (ISBN): 9789776808621**
- **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00295**
- **الغلاف: ببلومانيا**
- **مراجعة لغوية وتدقيق: د. مختار مراد**
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002022402029 - 002026061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541 +201208868826 fb.com/Books.Bibliomania/ ببلومانيا للنشر والتوزيع fb.com/bibliomania.eg/ Insta/books.bibliomania/ Books - ببلومانيا fb.com/groups/Bibliomania.Books/ @BibliomaniaEg

الإنسانية القاتلة

"رواية"

تأليف

ربيع حسين العلي

مبنبلو انيبا
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى الجيش الأبيض، من أطباء وممرضين وكل من يقدّم خدمة طبية، تحية تقدير وإجلال لجهودكم النبيلة وعطائكم الإنساني اللامحدود.

جميع أحداث هذه الرواية من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو محض الصدفة.

الفصل الأول مدينة بلا وجوه

تبدو وكأنها لوحة نابضة بالحياة، بمجرد رؤيتها تشعر وكأنك في مشهد من فيلم كلاسيكي قديم، يحمل اسم برلين الألمانية.. تظهر فيه شابة إيطالية فاتنة، تتسم بأناقة لافتة وقامة رشيقة، تنسدل خصلات شعرها السوداء بنعومة على كتفيها، وتبرق عيناها العسليتان كحبات الكرز الناضجة، تسحر كل من يقع نظره عليهما، تعيش مع صديقها شاباً إيطاليًا بملامح جذّابة وشارب عريض يشكل علامة فارقة في وجهه الوسيم، يحمل طابع الرجولة الكلاسيكية التي لا تغيب عن الذاكرة. كانت "صامويلا" ترى أن برلين هي الآمر الناهي في الاتحاد الأوروبي، القائد غير المعلن لمسيرة الوحدة التي بدأت عقب الحرب العالمية الثانية، حين أدركت أوروبا أن السلم لا يتحقق إلا بتقارب الشعوب قبل الحكومات، وكانت تردد دومًا أن أجمل ما قدمته تلك الحرب القاسية هو درس وجوب الوحدة بين الدول، مهما اختلفت أحجام الدول أو تعداد سكانها أو قوتها الاقتصادية.

بفضل قوانين الاتحاد، استطاعت هي وصديقها "ماريو" التنقل بحرية عبر دول أوروبا والعمل فيها، إلى أن انتهى بهما المطاف في مدينة الألمان كما كانت تسميها حيث اعتاد السكان الأصليون اعتبار وطنهم ملكًا خالصًا لهم، لا يتقاسمونه بسهولة مع الغرباء الذين يطرقون أبوابه بحثًا عن حياة أفضل. أتت إليها من "برغامو" تلك الجوهرة الواقعة في إقليم لومبارديا.

أما "ماريو" فترجع أصوله إلى مدينة باليرمو، عاصمة إقليم صقلية؛ حيث إن البحر الأزرق الدافئ يلامس ضفاف التاريخ وتتشابك الأزقة برائحة العراقة وتنبض الأرواح بطباع مشبعة بالشغف والعفوية والكرامة الجنوبية الأصيلة.

يحمل في شخصيته كثيرًا من ملامح تلك الجزيرة؛ انفعالاته السريعة، قلبه الذي يحمل بداخله كثيراً من الحب، كأن البحر سيطر عليه فلا يزال يسكن عينيه، والماضي يهمس في خطواته.

كانت "صامويلا" تعمل ممرضة في مستشفى الشاريتيه في برلين، تلك المستشفى التي تُعد من أفضل المستشفيات في أوروبا، بل وفي العالم، ويقصدها الناس من كل أنحاء العالم للعلاج.

حتى "ماريو" فهو يعمل بنفس المستشفي ولكن كطبيب.

تعرفا في المستشفى، وكان دائماً لا يخاطبها إلا بلغته المفضلة الإيطالية، تلك اللغة التي يعشقها أهلها حد التقديس. ورغم شغفه باللغة، إلا أنه لم يكفّ عن حثّها على إتقان الألمانية، مؤكدًا أن إجادتها ستكسبها احترام الألمان وتقديرهم، فهم يجلّون من يتحدث لغتهم بطلاقة.

كانت حالها كحال الغريب الذي يلمح وطنًا في عيون عابر، فتمسكت بـ " ماريو" وكأنه طوق نجاة وسط غربة معقدة، فقد وجدت فيه سبيلًا لتجاوز الإجراءات الصعبة التي تعيق الإقامة والعمل في ألمانيا. لم يبخل عليها بالمساعدة؛ يجيب عن تساؤلاتها، ويشرح لها تفاصيل الحياة الجديدة، التي تختلف كثيرًا عمّا اعتادته في إيطاليا.

فالحياة هنا تسير بإيقاع رتيب، يحكمها العمل والقوانين الصارمة، وتكاد تخلو من العفوية؛ أشبه بعزلة داخلية، أو استقلال ذاتي لا يربط الإنسان بغيره، لا من البشر ولا حتى من المكان، ولكنه بدأ يلتفت لجمالها فهي كانت تشبه القصائد التي لا تُكتب، بل تُحسّ عيناها تحملان دهشة الطفولة وحنين المدن القديمة، وابتسامتها هادئة، لكنها قادرة على إزاحة تعب يومٍ بأكمله، في حديثها رقيّ يشبه نغم البيانو وفي صمتها نوع من الوقار الذي يأسر دون تكلف لم تكن فقط جميلة، بل كانت مختلفة، تبقى في الذاكرة طويلًا..

أحب مواعدتها فقبلت إلا أن نهاية الأسبوع لم تكن موعدًا مناسبًا لها، فهي تعمل كمتطوعة في إحدى الجمعيات الإيطالية المتخصصة في رعاية المرضى من كبار السن.
كان لكلماته وقع خاص على قلبها، ولكنها لم تكن أسبق من نظراته التي باحت بما يخفيه قلبه. فاللسان لم يقدر على البوح بما يشعر قلبه.

قرر أن يعاود الطلب مرة ثانية، أنتظر انتهاء عملها وطلب منها أن تخرج معه اليوم للعشاء فوافقت بهدوء يشبه الترقب، فقلبها ينتظر ما يسمعه، ولكن عند وصولهم المطعم كان الصمت حليفه، ولكنه كان ليس بحاجة لكي ينطق، فقد قالت عيناه كل شيء وتقدّمتا إليه حتى ارتجف قلبه ولسانه المعقود بخيوط الخجل. تأملت ملامحه، وأثنت على ذكائه وبراءة وجهه حين يتحدث فقد خالف ظنها، إذ كانت تظنه أكثر صرامة، خاصةً بشخصيته القوية وكونه طبيبًا اعتاد ضبط مشاعره، لكنه فاجأها بابتسامة هادئة، وقال لها القوة لا تنفي الخجل، ولا تحجب الحنان والبراءة، بل من الممكن أن تسكن خلفهما بصمت..

وجدت في كلماته صدقًا نادرًا، لم تخفِ إعجابها به، بل قالتها كما شعرت، صريحة كالنور، واضحة كنبضها حين تراه.
وهكذا، توالت الأيام، والعلاقة بينهما تنمو كزهرة في حديقة هادئة، حتى قررت أن تشرع في فصل جديد، وتنتقل للعيش معه تحت سقفٍ واحد، حيث بدأت حروف القلب تُدوَّن على صفحات الواقع، وعاشوا معا حياةً هادئة في أحد أحياء برلين، وكانا يتنقلان باستخدام الدراجات من منزلهما إلى المستشفى. فيذهبان كل يوم إلى العمل سويًا، ويعودا مع بعضهم البعض.
كانت "صامويلا" إنسانية إلى أبعد حدود، تعمل بإنسانية بكل طاقتها فتمازح هذا المريض، وتطمئن على الآخر، تدردش مع الأطفال كأنهم أطفالها، وتستمع إلى الكبار كأنهم آباءها.
تساعد رفاقها، بل تقوم بعملهم في بعض الأحيان وتحاول دائمًا أن تحنن قلبهم على المرضى.
فهي تعيش على مبدأ أن الشفاء من عند اللّه، والطواقم الطبية أداته، وأن الإنسانية هي خلاص البشرية واستمرارها وسعادتها.
وفي حديث جمع بينها وبين أحد المرضي، سُئلت عن سبب اختيارها لبرلين كمدينة للعيش ابتسمت وهي تقول الإنسانية لا تعرف حدودًا، ولا تنتمي إلى أرض بعينها، ثم أكملت وهي تنظر إلى هذا الرجل الكبير بالعمر بعينين ممتلئتين بإيمان

عميق نُولد من دون أن نعلم من أين نحن؟ ثم يُعلِّمنا الناس ذلك ويُلقَّن إلينا كما تُحفظ القصائد. ولو لم نتعلمه ونحفظه، لبقينا نجهل أصلنا حتى آخر العمر..

وفي أحد الأيام التي كانت تمارس عملها فيها في المستشفى كان من بين المرضى سيدةٌ عجوزٌ، لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها ووجها شاحبٌ كظلام الليل، فاقتربت إلى تلك السيدة.. وأمسكت الملف الخاص بحالتها فعلمت بشكوها فهي مريضة بالتهاب الرئتين..

نظرتُ إليها، وعيناها ممتلئتان بالدموع، دخل "ماريو" الغرفة في تلك اللحظة وسألها عمّا يُبكيها، ولكنه بالنظر إليها علم أنها تبكي بسبب مرض تلك المرأة فاحتضنها ومسح دموعها بأنامله، وبدأ يغازلها بلطف، أمام السيدة العجوز التي راحت تبتسم في صمت، وسرحت بعيناها وعادت بها الذاكرة إلى أيام صباها. فذهب يقول لها كلمات الغزل التي تحبها..

ابتسمت وكأنها تلقت إبرة بثت علاجًا في قلبها، فطيب روحها وغسل أحزانها.

توجهت إلى الحمام لتغسل وجهها، وتابعت عملها مع تلك السيدة العجوز التي كان قد تقرر لها إجراء عملية في اليوم التالي.

قامت من نومها مبكراً رغم أن اليوم هو يوم راحتها التي تبقي فيه في منزلها مع حبيبها، ولكنها كانت تعلم أن اليوم سيتم إجراء العملية لتلك المرأة العجوز، فقامت وارتدت ملابسها، وخرجت من منزلها فيما بقي "ماريو" نائمًا.

وذهبت إلى بائع الزهور، فاشترت باقة ورود، ثم توجهت إلى المستشفى.

وعند وصولها، دخلت غرفتها تحمل باقة الورد، اقتربت منها برفق، وقبّلت يدها في صمتٍ ممتن.

في تلك اللحظة، طلب الطبيب نقلها إلى غرفة العمليات ، لم تكتفِ "صامويلا" بالانتظار في الخارج، وإنما طلبت من البروفيسور القائم بالعملية أن يسمح لها بالدخول مع الطاقم الطبي إلى غرفة العمليات.

بعد جدال طويل مع البروفيسور، وبناءً على رغبة المريضة، سمح لها البروفيسور بالدخول معهم كممرضة مساعدة في غرفة العمليات.

فارتدت ملابس المهنة، ودخلت مع الطاقم الطبي.

وما إن بدأت العملية حتى بدت مرتبكة ومتعرّقة، فطلب منها البروفيسور التحلي بالهدوء، ووعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وبعد مرور أربع ساعات من العمل المتواصل، تكللت العملية

بالنجاح.
فكانت فرحتها في هذه الأثناء لا توصف.
ثم انتظرت حتى استفاقت السيدة، واطمأنت على حالتها.
كانت تشعر أن أحد أفراد عائلتها هو من أجرى العملية،
لذا كانت عيناها تلمعان من الفرح، وملامحها تغمرها السعادة.
بعد ذلك قررت العودة لمنزلها فلقد اطمئنت عليها، وعند دخولها المنزل استقبلها "ماريو" بوجه شاحب بائس، وسألها بصوت حاد: "أين كنتِ؟"
فهدء صوتها وأقتربت منه: كنتُ عائدة من المستشفى.
فاشتدت ملامح وجهه غضبًا، وبدأ يردد بغضب: المستشفى!.
أومأت برأسها مؤكدة، وقالت بنبرة خافتة: نعم...
فسألها عما كانت تفعله في المشفى في يوم أجازتها، رغم أنها تبدو منهكة ومتعبة وكأنها كانت تعمل ولم تستريح طوال فترة عملها ولو للحظات.
فأخبرته بصوت منخفض بأنها كانت تعمل.
تفاجأ من ردها، فسألها باستغراب:
كيف ذلك؟ ألم يكن هذا يوم إجازتك؟
فأجابته بهدوء: كنت مع الفريق الذي أجرى العملية للسيدة تيريز.

فاستنكر فعلتها متسائلًا إذا ما كانت "تيريز" هي السيدة العجوزة التي كانا في غرفتها بالأمس.

فهزت رأسها... بنعم...

فنظر إليها متوجهًا إليها بسؤالٍ آخر: لما كل ذلك؟

أخبرته بأنها أحست أنه من الواجب عليها أن تكون معها، وقد كان، والعملية تكللت بالنجاح.

وبعد أن مل من كثرة الأسئلة خصوصًا أنه لم يفهم تصرفها، فهو يعرف حبيبته، ذهب إلى المطبخ وأحضر الباستا، وتناول الغداء معها، وبدأ يحدثها وهو مبتسماً ويلامس شعرها:

يموت جهاد الثائرين دفاعًا عن أوطانهم، ولكن لا يموت جهادكِ في سبيل الإنسانية..

كانت تشاهده وهو ينطق الكلمات فسألته: أطبيب أنت أم شاعر؟

فأجابها قائلاً: "كل الأطباء سيتحولون إلى شعراء إن وقعت أعينهم في عينيك".

وما إن انتهيا من الغداء حتى اتصل أحدهم بـها، وأخبرها أن "تيريز" فارقت الحياة نتيجة نزيف حدث لها قبل ساعة، وللأسف لم يتمكن الأطباء من إنقاذها.

فانقلبت فرحتها إلى مأتم، وبدأت تصرخ بشكل لا إرادي "تيريز" ماتت، ماتت..

حاول "ماريو" في هذه الأثناء تهدئتها إلا أنه لم يفلح حتى أغمى عليها..

فحملها ووضعها على الأريكة وحاول إفاقتها بالعطر، ولكنها كانت تبكي وتأخذ أنفاسها بصعوبة، فأعطاها إبرة مخدرةً لكي تنام.

وعندما خلدت إلى النوم، جلس يفكر في سبب تعلقها بهذه السيدة العجوز.

لم يجد إجابةً لسؤاله.

وما إن شرع في جمع ملابسها المبعثرة هنا وهناك، حتى وقعت بين يديه صورة لسيّدة عجوز تشبه "تيريز".

ولكنه بعد التدقيق في ملامح الصورة واسترجاع ملامح "تيريز"، أيقن أنها ليست هي.

بدأ يفكر بعمق، محاولًا أن يتذكر من تكون تلك السيدة.

ظل بعض الوقت يفكر من تكون أو يحاول أن يصل لأي شيء يكشف هويتها أو يوضح سبب احتفاظها بتلك الصورة.

أخذ يفتش في الغرفة، يقلب الأشياء بحثًا عن أي شيء، ليصل لإجابة تسد فجوة الحيرة التي تنهش ذهنه.

لكن دون جدوى. فكرُه أنهكه، وصداعه ازداد، وكلما ظنّ أنه اقترب من الخيط، تلاشى.

وحين حلّ المساء، خارت قواه ونام بجانبها، فهي كانت تشبه الشخص الذي دخل في غيبوبة وابتعد عن هذا العالم، لا تدري ما يدور حولها.

في اليوم التالي، أفاقت "صامويلا" ووجدته خالداً في نوم عميق ورغم ذلك شعر بها وبحركتها ففتح عيناه وهو يبتسم وقال عندما رآها:

الحمدلله على سلامتك، وأكمل كلامه وهو ممسكاً يدها:

من قال بأن الموت يحدث مرة؟

فكل غياب لكِ موتٌ جديد.

ومن ادّعى أن الميلاد لحظة واحدة،

فأنا أولد كلما سمعت صوتكِ أو لمحت طيفكِ.

ومن ظن بأن أحدًا لا يموت قبل أوانه،

أقسم بالله، أغيب عن الحياة كلما ابتعدتِ،

كأنني موضوع على جهاز إنعاش،

لا أتنفس إلا بكِ.

ابتسمت وهي تقول له أحبك، ثم بدأ صوتها يملائه البكاء.

عندئذٍ سألها عن سبب بكائها.

ردت ودموعها تسيل على خديها ماتت، "تيريز" ماتت يا "ماريو".

فلامس خدها وهو يقول أتى أجلها وهي امرأة كبيرة بالعمر.

سمع صوتها الخافض وهي تردد: وهل للموت سن؟
لماذا لا نموت نحن وهم يبقون؟
فكان رده إنها الحياة والقدر.
فأجابته إنها كذبة تسمونها الحياة.
ثم سألها عن سبب حزنها الكبير عليها، وهل كانت تعرفها من قبل؟ خصوصًا أنها كانت تعمل في رعاية المرضى كبار السن.
فأخبرته بأنها لم تكن تعرفها من قبل، وأنها رأتها للمرة الاولى في هذا المشفى.
فتفاجىء واستغرب سبب تعلقها بها.
شردت قليلًا، وأخبرته بأن الحب لا يُقاس بالسنين،
فقد نمضي أعوامًا مع من لا يترك فينا أثرًا أو شعورًا، ونلتقي بأشخاص للحظات، ولكن ذكراهم تبقى في القلب طوال العمر.
شرد بمجرد سماع حديثها.
معك حق، لأمس خدها وهو يسألها إذا كانت ستذهب معه إلى المشفى اليوم.
فقامت ووجها مبتسم: اليوم سيكون راحة، ألم استحق ذلك.
فأبتسم وهو يردد تستحقين كل ما هو جميل ثم قام وبدأ في تجهيز نفسه وغادر المنزل بعد أن ودعها ذاهبًا إلى عمله على دراجته.
أما هي فبقيت مستلقيةً في سريرها، تفكر في "تيريز"، ناقمةً

على الحياة، وحزينة كما لو فقدت والدتها.
مر الوقت ببطئ حتى عاد "ماريو" من عمله حاملًا بعض البيتزا الإيطالية اللذيذة التي يعلم جيداً كم هي تحبها..
وعند دخوله ألقى حقيبته على الأريكة وقام بتجهيز كل شيء، ووضع كل شيء أمامها على الطاولة، ولكنها لم تأكل سوى قطعةً صغيرة منها، وقامت وذهبت لكي تسلقي على سريرها، ولكنها كانت شاردةً.
أزال هو كل ما كان موجوداً على الطاولة، ودخل وراءها الغرفة وقام بتشغيل التلفاز، وتوقف عند إحدى القنوات التي تعرض نشرة الأخبار.
جاء في سياق النشرة خبر عن فيروس جديد يضرب مدينة يوهان الصينية ويقتل الآلاف من الأشخاص، مما أحدث حالة هلع في الصين كلها، ودعا السلطات الصينية إلى عزل المدينة بشكلٍ كامل.
هنا سألته عن هذا الفيروس فيما إذا كان على معرفة به أو فيما إذا كان قد مر عليه حالة تعاني منه.
سكت لوهله، ثم أخبرها بأنه لم يسمع شيئًا عن هذا الفيرس من قبل.
ومنذ هذه اللحظة أصبح هذا الفيروس شغله الشاغل.
أصبح يبحث عنه في مصادر ومراجع مختلفة، إلا أنه لم يجد

سوى معلومات سطحية في الإنترنت تفيد بأنه نشأ في الصين ولا شيء آخر سوى ذلك.

بقي حتى الصباح غارقًا في البحث، وانتهى يائسًا من أية معلومة كون هذا الفيروس حديث العهد.

استيقظت ورأته ما زال مستيقظًا، راحت تسأله عن سبب استيقاظه باكرًا.

فأخبرها بأنه لم ينم قط، باحثًا عن معلومات عن الفيروس دون جدوى.

فكرت قليلًا ثم قالت له: لقد وجدت الحل.

ماذا وجدتِ؟

عليك بالذهاب إلى السيد "مولر"، فيوجد علاقة تربطنا به جيدة، وهو رجل مسن، ومن المحتمل قد يكون مر عليه هذا الفيروس، إما بتجربة شخصية أو من خلال أحد مرضاه، ربما عالجه من قبل، فهو معروف بكونه أحد أفضل الباحثين في العالم.

كان "مولر" رجلًا عجوزًا كبيرًا في السن إلا أنه لا يزال يعمل باجتهاد باحثًا في مجال العلوم الطبية.

فمنذ وفاة زوجته، يعاني وحدةً قاسية، جعلته يكرّس كلّ وقته للعمل في المعهد، ساعيًا لتطوير العلاجات المضادة للأمراض والفيروسات. فهذا الأخير قد نذر حياته لخدمة البشرية.

استحم "ماريو"، ولبس ملابسه بسرعة، وخرج من المنزل من دون أن يتناول فطاره، بل وحتى من دون أن يودعها التي كان من المفترض أن تخرج معه إلى المستشفى.

توجه إلى معهد روبرت، المعهد الأشهر في العالم بالأبحاث العلمية، كانت الساعة تقارب الثامنة صباحًا وكان السيد "مولر" ما زال غير موجود، فأخبره موظف الأمن بأنه بقي حتى ساعات متأخرة في المعهد، وهو يعمل على هذا الحال منذ ما يقارب أسبوعين.

بعد كلام موظف الأمن، أيقن "ماريو" أن "مولر" يعمل على جمع معلومات عن هذا الفيروس، فأصر على انتظاره حتى يحضر.

بقي منتظرًا حتى قاربت الساعة التاسعة صباحًا، وإذا السيد "مولر" يهل طيفه رجل أصلع، ذو شارب أبيض، ووجه منكمش تغطّيه التجاعيد، يرتدي بدلة سوداء أنيقة، ويمسك حقيبة سؤداء يبدوا أنها ممتلئه بالأوراق المهمه.

وعندما رأه تبسم، وأخبره بأنه كان ينتظره منذ ما يقارب أسبوعين.

فسأله عن سبب انتظاره له.

نظر إليه بابتسامة عريضة وقال: إني أنتظرك لأقول لك: إننا لم نصل حتى الآن إلى أية معلومات دقيقة حول فيروس الصين.

فتسائل "ماريو" عن سبب تسميته لهذا الفيروس بفيروس

الصين.
أجابه قائلًا: الصين هي بلد المنشأ، وبما أنه فيرس غير معروف فإنه من الأجدى أن أطلق عليه تسمية فيروس الصين حتى نتمكن من معرفته وإعطائه تسمية تليق به.
أجابه باستهجان: هذا يعني أن هذا الفيروس لم يكن موجودًا من قبل.
فرد عليه.. قلت لك بأننا لم نتمكن إلى الآن من تحديد الصفات التي يتمتع بها هذا الفيروس.
ثم قام "مولر" وأحضر كوبين من القهوة المضاف إليها الحليب أو ما يعرف بالقهوة الألمانية، ودعا "ماريو" لتناول القهوة معه.
قبل "ماريو" دعوتة، وسأله إذا ما كان من الممكن أن يكون من بين فريق الأطباء الذين يبحثون في هذا الموضوع.
فأخبره بأنه سوف يتواصل مع زملائه ويأخذ رأيهم.
فأصر في طلبه، وأخذ يترجاه قائلًا:
يا سيد "مولر" هذا رجاء وليس طلبًا.
تساءل "مولر" عن سبب تعلقه بالبحث عن هذا الموضوع.
فجاء رده بأنه لا يدري، ولكن هناك رغبة داخلية تدفعه إلى ذلك.
ثم ذهب "مولر" إلى غرفة أخرى وعاد وبيده ورقة.
سأله عن الورقة، فأجابه بأنها الموافقة على العمل كباحث هنا

في المعهد.
نهض "ماريو" من على كرسيه، وقبّله، ولكن دون قصد سكب القهوة عليه وعلى نفسه.
قال له "مولر": اهدأ يمكنك منذ الغد مباشرة عملك هنا.
عاد "ماريو" مسرعًا إلى المنزل لإخبار حبيبته بهذا الخبر.
وعند دخوله المنزل، نادى عليها، ولكنها لم ترد عليه فهي لم تكن في المنزل..
ألق كل ما كان بيده وجلس قليلًا على الأريكة، وتذكر حينها أنها قد تكون ذهبت إلى المستشفى.
قام لكي يبدّل ملابسه المتسخة بالقهوة ثم توجه مباشرةً إلى المستشفى.
وهرول مسرعًا يزف الخبر الذي أسعده لحد الجنون إليها، ولكنها قابلته ببرود، رغم أنه أخبرها بحماس وبدون مقدمات ابلغها أنه سيعمل في البحث العلمي حول الفيروس الصيني مع السيد "مولر".
لم تعلق على الموضوع، وإنما قالت له: كيف تخرج من المنزل صباحًا من دون أن تقبلني؟
سكت وشرد قليلًا وقال: أنا لم أُقبلكِ
.. نعم أنت يا حضرة الطبيب.
فاعتذر منها، وشرح لها أنه بقي طوال الليل يبحث عن خيط

يوصله لمعرفة شيء عن هذا الفيروس، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل.
اصطحبها وهو ماسكًا يدها رغم أنها ما زالت بملابس المهنة.
فقالت له مهلًا، إلى أين؟
وأخبرته أن دوام عملها لم ينتهِ بعد، وأن أمامها على الأقل ما يقارب الساعة.
ولكنه نظر إليها، وأخبرها أنه قد تحدث مع الإدارة، وطلب منهم أن تخرج باكرًا اليوم، وهم لم يمانعوا ذلك.
فطلب منها أن تقوم بتغير ملابسها الطبية، وهي لا تدري إلى أين هي ذاهبةً.
فذهبوا بعيدًا حتى وصلا إلى شارع فريدرش.
دخل "ماريو" مطعمًا إيطاليا ممسكًا يدها، واختار طاولةً على ضفاف النهر، وجلس وجلست هي بالكرسي المقابل له.
كان هذا المطعم من أفخر المطاعم الموجودة في هذه المنطقة، بل في برلين بأكملها، ويتميز بعاداته الإيطالية القديمة.
أخذ يحدق بـها قائلًا لها: وسط هذا الضجيج الذي يعصف برأسي، لم أجد لقلبي سبيلاً إلى الحياة سوى أنتِ.
فلا بد لي من أن أتأمل وجهكِ الملائكي.
واقرأ ملامح حبي في عينيكِ.

أتتبع حركات شفتيكِ لألمح ابتسامتي مرسومة داخلهما، وحينها فقط، أشعر أنني أعيش حياة الملوك.

هنا سألته عن الذي يشتت أفكاره منذ الأمس وعما يفكر به؟ ولماذا هو منشغل كثيرًا بهذا الفيروس؟

نظر إليها "ماريو" قائلًا: هذا ليس مرضًا عاديًا هذا وباء، وإذا لم يتم علاجه في يوهان سينتشر في العالم كله.

لم توافقه الرأي، ولم تناقشه في الأمر. وبعد أن حضر الطعام، تناول كل منهما اللازانيا الغنية بالجبن واللحم المفروم، ورغم ذلك كان لا يزال يفكر في هذا الفيروس.

هنا سألته عن موعد بداية عمله في معهد الأبحاث برفقة السيد "مولر".

فأخبرها أنه سيبدأ منذ هذه الليلة مساءً، وسيقوم بداية بقراءة بعض المراجع عن علم الفيروسات في المكتبة الخاصة بالمعهد.

وما إن انتهيا من تناول الطعام، وبناءً على رغبتها، جاء أحد العمال وشرح لهما عن الصور المعلقة على الجدران.

بعد ذلك، خرجا من المطعم ممسكين بعضهما البعض بالأيدي، يركضان في الشارع كالأطفال ولم يتوقفا إلا أمام دكان بائع الزهور.

اشترى لها باقة من الزهور، وقدمها لها وسط ابتسامة مالك

متجر الزهور.
ثم أكملا طريقهما حتى وصلا إلى بيتهما، فاستلقت في سريرها، وقام هو بتشغيل التلفاز، وسار يقلب بين القنوات يبحث عن أية معلومة عن الفيروس الصيني.
عند تمام الساعة السابعة مساءً، غادر المنزل قاصدًا المعهد وسط فرحة تغمر قلبه بعد موافقة البروفيسور له لهذه المهمة.
فدخل المعهد، تعرف على زملائه وهو كان أصغرهم سنًا.
كان المعهد ينقسم إلى قسمين، قسم خاص بالأبحاث النظرية، وقسم للأبحاث العملية.
فهذا المعهد كان يتكون من طابقين لكل قسم خصص طابقًا، طوابق جدرانها قديمة قد تعود للحرب العالمية الثانية لكنه كان يمتلك أحدث الأجهزة، وأفضل المواد الطبية جودةً.
شرع بالبحث النظري، فدخل المكتبة التي تحتوي على الآلاف من الكتب الطبية.
رحلته كانت في الكتب التي تتحدث عن الفيروسات وأنواعها.
بعد أن شاهده "مولر" يبحث في علم الفيروسات، أخبره بأنه يتوجب عليه البحث في الكتب التي تتحدث عن فيروس السارس.
كان "مولر" يعتقد أن هذا الفيروس مشابه بصفاته لفيروس

السارس، لكنه كان غير متيقن من ذلك.
اقتنع بوجهة نظره، فانهمك في الكتب التي تتحدث عن هذا الفيروس.
بقي حتى وقت متأخر من الليل يبحث في هذه الكتب، فلم يجد أي خيط يرشده إلى ماهية هذا المرض المنتشر.
غادر المعهد ليلا برفقة "مولر"، وفي الطريق سأله عن شكوكه حول هذا المرض، فكان جوابه بأنه فيروس أو غاز تسرب من أحد المختبرات.
أخبره أنه عندما قرأ عن مدينة يوهان لاحظ وجود الكثير من المعامل البيولوجية ومراكز الأبحاث التي تتوطن في هذه المدينة الصينية.
فقال "مولر" بأنه لا يمكن تقييم الأمورالآن إذ لا يوجد أية حالة يمكن القيام باختبارها في ألمانيا.
فأردف "مولر" بأنه قد سمع من بعض القنوات التلفزيونية التي تحدثت عن توقعات للمخابرات البريطانية التي لم تستبعد تسرب هذا الفايروس من أحد المختبرات الصينية ولم تتمكن هذه الأخيرة من السيطرة عليه، ولكن دولة الصين لم تخبر أحدا عن هذه المعلومات خوفًا من العقوبات التي قد تتعرض لها في حال ثبت تقصيرها في إحتواء هذا الفايروس.
ودعه بعد أن قام بإيصاله إلى منزله.

ثم تابع طريقه إلى منزله، وما زال رأسه مشغولًا بالمرض المنتشر في مدينة يوهان.

وما إن وصل منزله حتى ذهب مباشرةً إلى فراشه لكي ينام، ولكنه لم يستطع النوم لأنه كان ما زال منهمكًا في التفكير في هذا المرض.

في صباح اليوم التالي، استيقظت باكرًا ولم تجده بجانبها، ولكنها لاحظت أنه ما زال مستيقظًا اليوم أيضاً.

فأقتربت منه وسالته عن سبب عدم نومه، فأجابها أنه حاول جاهدًا النوم، ولكنه لم يفلح بسبب انشغال تفكيره كثيرًا في ماهية هذا الفيروس، وافتراضه لعدة سيناريوهات.

فأحضرت له القليل من البيض، والجبن الإيطالي، وتناولت الفطور معه..

ثم تناول كل منهما قهوته، وارتدى كل منهما ملابسه قاصدين المستشفى باستخدام الدراجة.

وصل كُلًّا منهما إلى عمله، ودخل هو يبحث عبر الإنترنت عن معلومات تفيده لتستكشف هذا المرض المنتشر.

هنا، عثر على بعض التقارير التي تتحدث عن أن المرضى في يوهان يموتون جراء الاختناق بسبب عدم القدرة على التنفس الناتج عن تدهور في حالة الرئتين بعد التقاط هذا الفيروس.

هنا، ركض مسرعًا حاملًا بعض التقارير إلى بيت البروفيسور

ليخبره بما وجد.
وما أن فتح باب شقته حتى رأه في حالةٍ غريبةٍ منفعلًا بشكل غريب، فسأله ماذا هناك يا "ماريو"؟
فطلب منه أن ينظر في هذه التقارير.
فسأله... ما هذه التقارير التي تجعلك تأتي في هذا الصباح الباكر؟
ثم طلب منه جلبها معه مساءً، لكي يتم نقاشها في المعهد.
استغرب من ردة فعله ، وسأله عن سبب عدم تحمسه لقراءة هذه التقارير؟
يا "ماريو" أنت ما زلت شابًا، وتستطيع العمل ليومٍ كامل متواصل، وإنما أنا رجل عجوز أستطيع العمل لساعاتٍ معدودة، والمنزل هو بيتٌ الراحة وليس للعمل.
هنا تفهم "ماريو" وجهة نظره، وغادر منزله، وعاد للمستشفى.
في المستشفى رأى "ماريو" "صامويلا" التي سألته: أين كنت؟
فأجابها بأنه قد كان في منزل الأحمق "مولر".
استغربت من حديثه، وسألته لماذا وصفته بالأحمق.
أخبرها بانفعال لأنه لا يريد أن يقرأ ما عثرت عليه.
فقالت وعلى ماذا عثرت أيها البروفيسور الشاب؟
أجابها بأنه قد عثر على بعض التقارير الطبية التي تذكر أن وفاة المرضى في يوهان هو نتيجة نقص في التنفس الناتج عن

عدم عمل الرئتين بالشكل الصحيح.
هنا، تذكرت "تيريز"، وقالت بينها وبين نفسها هل من الممكن أن تكون "تيريز" قد أصيبت بهذا الفيروس؟
بعد انتهاء دوام العمل في المستشفى، ذهبا سويًا إلى أحد المطاعم فتناولا الغداء، وحظيت ببعض الكلمات الرومانسية منه..
ثم غادر كل منهم في اتجاه، فذهب هو إلى المعهد، في حين توجهت هي إلى التسوق.
وصل المعهد، وكان يحمل بين يديه التقارير التي كان قد حصل عليها عبر الإنترنت.
وما إن وصل مكتب البروفيسور، استقبله بحفاوةٍ وسأله: أين التقارير أيها البروفيسور الشاب؟
استغرب بحفاوة استقباله، فقال له "مولر": لا تستغرب أيها الشاب، وإنما هنا المكان المناسب للحديث في العمل وليس المنزل.
قرأ البروفيسور التقارير بتمعن، وتوصل إلى أن ما هو مكتوب قد يكون واقعيًا من الناحية العلمية، ولكنه غير مؤكد طالما لم تكن هناك حالة متوفرة يمكن إجراء الفحوصات الطبية عليها.
أخبره البروفيسور بهذه الخلاصة، وقال له: أحسنت بما جلبته، ولكنه تقارير للأطباء في يوهان، وهم يمتلكون حالات مصابة

ومن خلال ذلك قدموا هذا التشخيص.
وأضاف بما أننا لا نمتلك حالات في ألمانيا، فلا يمكننا تحديد ماهية المرض أو مواصفاته أو حتى أعراضه.
سكت "ماريو" قليلًا، ثم غادر مكتب البروفيسور متوجهًا إلى المكتبة لإكمال البحث حول هذا المرض.
فقرأ في بعض الكتب حول فيروس السارس، وذهب ليفترض أن هذا المرض قد يكون شكلًا أو فايروسًا متطورًا لفيروس السارس أو أنه نوع يتشابه في صفاته معه.
في هذه الأثناء، كانت قد غادرت إلى السوق لشراء حاجاتها المطلوبة، وتوجهت إلى المنزل.
وبعد أن شاهدت الأخبار التلفزيونية التي كانت تتحدث عن هذا المرض الذي ضرب مدينة يوهان، أحست بالتعب فاستلقت على الأريكة، وغطت في النوم.
وما إن نامت قليلًا حتى استيقظت، وتهيأ لها أن "تيريز" كانت تصرخ، وتقول: نعم أنا كنت مصابة.
فكرت قليلًا، ثم اتصلت بـحبيبها الذي كان لا يزال في المكتبة طالبةً منه أن يأتي في الحال.
فظن أن حالتها الصحية قد تدهورت من جديد، فأتى مسرعًا تاركًا كل ما كان بحوزته في المكتبة.
وما إن وصل المنزل ودخل لم يقم بفعل شيء سوى أنه ركض

إلى الأريكة النائمة عليها ووضع يده على رأسها وقال لها: ماذا تشعرين؟

هل تعبت مرةً أخرى؟

قالت له اهدأ، أردت أن أخبرك بشيء مهم.

فسالها ماذا حدث؟

بماذا تريدين إخباري؟

ما هو الشيء المهم الذي من أجله طلبتني أن أحضر على الفور؟

ردت عليه ببراءة : أريد أن أخبرك بحلم.

هنا فقد أعصابه، وبدأ بالصراخ: كل هذا من أجل حلم.

أخبرته بأنه حلم مهم جدًا، وطلبت منه أن يهدأ قليلًا لالتقاط أنفاسه.. وبعد أن هدأ كل منهما، سردت الحلم لـه..

بعد فترة تفكير عميق من قبل "ماريو"، أخذ يفكر بينه وبين نفسه وتفوه بكلمة واحدة: ممكن!

قالت له "صامويلا" حينئذ: هل تفكر بما أفكر؟

رد عليها نعم.

قد تكون مصابة بهذا المرض، ولم يأبه أحد لذلك.

فأخبرها بأنه شيء خطير، لأنه قد قرأ في التقارير أن هذا المرض قد ينتقل باللمس من شخص إلى آخر.

هنا أصابهما الوسواس، وقالت هذا يعني أننا جميعًا مصابون،

فأنا كنت قد قبلتها، وأنتَ قبلتني.
فأخبرها بأنه يجب عليهم التريث حتى الصباح.
في هذه الليلة: لم تنم ولا حتى هو..
وفي الصباح الباكر، قاموا وخرجا من المنزل من دون تناول الفطور ولا حتى احتساء القهوة كما تعودوا..
توجها مباشرةً إلى المستشفى، وخضع كل منهما لفحص الدم، إذ أنهما كانا يعتقدان أن فحص الدم سوف يظهر النتيجة المرجوة.
بعد قليل من الوقت، أظهر فحص الدم أن كل شيءٍ طبيعي، فاطمأنت "صامويلا" ومن بعدها "ماريو".
هنا تذكرت "صامويلا" "تيريز"، وقالت لـه لما لا نذهب ونحلل جثة "تيريز".
أُعجب بفكرتها واتصل بالبروفيسور لأخذ رأيه الذي أجابه أنه يمكنه فعل ذلك، رغم دهشته من أن يصل إلى أي استنتاج إذ أن "تيريز" قد تكون مريضة عادية تعاني من التهاب في الرئتين، وليس بالضرورة أن يكون ناتجًا عن التقاط ذلك الفيرس.
ذهب معاً إلى إدارة المستشفى للاستفسار عن مكان وجود "تيريز".
فأخبرتهم إدارة المستشفى أن ولدها كان قد حضر، وأخذها إلى

قرية تدعى بيركن فيرده وهو مكان إقامتها قبل الوفاة.
طلبت "صامويلا" عنوان "تيريز" المسجل في الكشوفات الطبية، لكن الإدارة امتنعت في البداية، مما دفع "صامويلا" للصراخ بوجه أحد الموظفين الذي سألها عن صفتها ولماذا يتوجب عليه أن يصرح لها عن عنوان سكنها؟
وأضاف الموظف: نحن في دولة يحكمها قانون حماية البيانات، وهذا ممنوع قانونًا.
ألمانيا بلد البيروقراطية، البلد التي تُقدس الأوراق.
صمتت للحظات وقالت لـه اتبعني.
خرجت من المستشفى برفقتة، واستلقت سيارة أجرة، وأخبرت السائق بأنهما يَودّان الذهاب إلى مدينة تدعى بيركن فيرده.
قال لها سائق السيارة بكل سرور، ولكنه طلب منهما وضع أحزمة الأمان حفاظًا على صحتهما.
وضع كل منهما حزام الأمان الخاص به، وانطلق السائق برحلة لنحو نصف ساعة حتى وصلوا إلى ساحة المدينة.
كانت "بيركن فيرده" قرية كبيرة وجميلة، تحيط بها الأشجار من كل الجهات.
بيوتها قديمة، مبنية على الأرض، ولا يتجاوز ارتفاعها في الغالب طابقين.
سهّل هذا الأمر كثيرًا على "صامويلا"، إذ غالبًا أنه في القرى

تستطيع أن تجد الأشخاص بسهولة، ففي الغالب يكون الأشخاص على معرفة ببعضهم البعض.

نزلا من سيارة الأجرة، وراح كل منهما يسأل المارة عن سيدة تدعى "تيريز".

واستمرا في سؤال المارة لعدة ساعات حتى تقابلا مع جار لها بالصدفة، ورافقهما بنفسه إلى منزل ولدها. فشكروه.

قرع "ماريو" جرس الباب، ففتح "توماس" ابن السيدة "تيريز"، وسألهما عما إذا كان يمكنه مساعدتهما.

فسألته عن "تيريز" فبكى وأخبرها بأن والدته قد رحلت.

قالت له نحن نعلم أنها رحلت، ولكن أين جثتها؟

استغرب من سؤالها لكنه أجابها بأنهم قاموا بالأمس بدفنها في مدافن البلدة.

فسأل "ماريو" عن مكان قبرها الأمر الذي أثار استغراب الابن وقال: ما القصة؟

من أنتما؟

أنتما لستما بألمان؟

ماذا تريدان من جثة أمي؟

فطلبت منه أن يهدأ وسوف تشرح له كل شيء.

فأذن لهم بالدخول، وعند جلوسهم بدأت هي بالكلام.

والدتكَ كانت تعاني من التهاب في الرئتين، وهذا الطبيب "ماريو" يعتقد أن والدتكَ تحمل الفيروس الصيني المنتشر الآن في مدينة يوهان.

ولكن رده جاء صارمًا بوجه غاضب: أن هذا هراء، فوالدتي لم تغادر ألمانيا منذ زمنٍ بعيد!...

ليس بالضرورة أن تكون والدتك قد ذهبت إلى الصين لتجلب الفيروس، فقد يكون الفيروس هو من أتى إليها عبر شخص آخر حاملًا له، ونقله لها.

شرد قليلًا ثم التفت إليها: ما المطلوب مني الآن، فوالدتي رحلت، ولقد تم دفنها.

أجابه "ماريو" بأنهما يريدان أن يحللا جثتها، فامتنع في البداية.

إلا أنه بعد شرحٍ مطول من "ماريو" حول إمكانية صنع دواء لهذه المرض وما فيه من خدمة للبشرية، فاقتنع حينها...

ولكن إن هذا الإجراء يتطلب موافقة من السلطات المختصة!.

ذهب برفقتهم إلى السلطات المختصة للحصول على الموافقة على إخراج الجثة تمهيدًا لتحليلها، فامتنعت هذه السلطات المختصة عن إصدار هكذا موافقة، معتبرةً أنه لا يوجد مبرر لذلك، طالما أنه لا يوجد حالات مؤكدة مصابة في ألمانيا.

احتج "ماريو" ومعه "صامويلا" على هذا التعليل، واعتبرا أن

الإنسانية تستوجب العمل للحصول على دواء لهذا المرض.
لم يفلح "ماريو" ومن معه بالحصول على الموافقة، وبقيت قصة السيدة "تيريز" مجهولة، ولم يعرف إذا ما كانت قد أصيبت بهذا الفيروس، وهل كان هذا الفيروس هو السبب الرئيس لوفاتها أم لا؟
عاد كل منهم إلى منزله، وبعد وقت قصير من المكوث قرر "ماريو" الذهاب إلى المعهد.
فغادر المنزل وقصد المعهد، فقابل هناك البروفيسور الذي أطلعه على ما حصل معه، فأجابه "مولر" بأنه كان لا أمل لديه بهذه الخطوة خاصةً أن "تيريز" كانت قد ماتت، ولا يفيد إجراء الفحوصات الطبية عليها من خلال تشريح جثتها،
ونصحه "مولر" بمواصلة البحث والقراءة في علم الفيروسات وخاصة فيروس السارس، وما يرتبط به، خصوصًا إذا كان من الممكن تطويره.
استمع "ماريو" لنصيحة "مولر"، فتابع القراءة والتحليل من الناحية النظرية حتى كاد رأسه يتفجر لكثرة الأفكار التي راودته أُصيب "ماريو" بالإرهاق، فعاد إلى المنزل ونظر في مفكرته، وانتبه إلى أن هذا اليوم هو يوم مولد حبيبته..
تبسم وكأن همه قد زال، لكن انشغل فكره مرةً أخرى، لكن في هذه المرة انشغل في ماهية الهدية التي سوف يقدمها إليها.

لم يفكر كثيرًا، فقرر أن يشتري لـها محفظة معدات طبية، تكون تحتوي على كل المعدات التي يحتاجها الطبيب رغم أنها ممرضة وليست طبيبة.

نام ما يقارب الساعتين، ثم خرج قبل أن تستيقظ، وأحضر ورود النرجس، ووضعها على الطاولة، ثم ذهب إلى الغرفة وأيقظها..

لاحظت عند فتح عيناها أن هناك رائحة نرجس تفوح، فقامت مسرعةً، توجهت إلى غرفة السفرة، وأمسكت بورود النرجس وراحت تقبلهن واحدة تلو الأخرى كالأم التي تقبل أطفالها بعد غيابٍ طويل.

ثم حضنت من كان يراقبها في هذه الأثناء، وقبلت يديه.

نظرت إليه قائلةً: إن الأيادي التي تُهديني النرجس، لا أملك لها جزاءً سوى أن أُكافئها بالتقبيل.

ضحك وهو يقول لها: كم أنت مجنونة..

فالنرجس بالنسبة لها شيء مقدس، واستمرت في مغازلة النرجس قائلة: إن في النرجس رائحةً تفوحُ كعطرٍ من عطور الجنة، بل إنه السبيلُ لإيقاظِ ميتٍ أو لإحياءِ قلبٍ أرهقته الحياة بمشاغلها.

لو كنت رجلًا، لأحضرت لمن أحبها كل يوم باقة من النرجس، بل وغسلت نفسي كل يومٍ بمائه.

في مساء ذلك اليوم، اصطحبها إلى مطعمٍ إيطالي، وما إن

دخلت من باب المطعم حتى صفق الجميع ونظرت "صامويلا" وإذ بأصدقائها الذين قد دعوا مسبقًا من "ماريو".
بدأ أصدقائها بتقبيلها، وبتقديم أمنياتهم لها بأن تبقى بصحة جيدة، وأن تحقق مزيدًا من التقدم.
فرحت بكلام رفاقها، واحتضنها "ماريو" وهو يغازلها.
صفق الجميع لـه وقال له أحد أصدقائه ممازحًا:
أعتقد أنك تنفع أن تكون شاعرًا أكثر من أن تكون طبيبًا.
فرد عليه بأن الطبيب يعالج الأجساد، والشاعر يداوي المشاعر والأحاسيس، فجوهر كلاهما واحد: الإنسانية، الإنسانية فقط.
وما إن انتهى من كلامه حتى حمل المحفظة الطبية، وقدمها إلى "صامويلا"، وقال لها: ستحتاجينها يومًا ما.
نظرت "صامويلا" إليه مستهجنةً عن سبب احتياجها لها.
فأخبرها بأنه أراد أن يعينها طبيبة له، تداوي قلبه ومشاعره وأحاسيسه.
وبما أنني قد قررت تعينك طبيبة، فها أنا أطلب منكِ الزواج لعل التعساء يزدادون فرقة.
تفاجأت بطلبه، لكنها أبلغته بأنها ستوافق، بشرط أن يتم الزواج في إيطاليا...
فوافق على شرطها دون تردد.
سُر أصدقاؤهما مما سمعوه، وفرحوا بهذا الحب الموجود،

وكأنه الحب الوحيد الصادق في هذه الحياة، الخالي من المصالح والنفاق، المحفور في القلب والمزروع في الأحاسيس والوجدان.

وبعد تناول العشاء، وتبادل التحيات والمجاملات، عادا إلى منزلهما، فبدل "ماريو" ملابسه، وذهب مسرعًا إلى المعهد لإكمال مهمته في البحث.

واستمر الوضع على حاله لمدة ما يقارب شهر ونصف، يذهبان بشكل دائم إلى المستشفى في الصباح، وبعدها يذهب "ماريو" إلى المعهد في حين تذهب هي إلى المنزل مساءً.

وأثناء تمدد "صامويلا" على الأريكة في يوم من الأيام، مر على شاشة التلفاز أن هناك حالات إصابة بالمرض في إيطاليا بدأت تظهر، مما أثار مخاوفها.

فأصبحت تتجه لمتابعة الأحداث لحظة بلحظة.

فبدأت رحلتهت في البحث عن أعداد المصابين في إيطاليا مستخدمةً الإنترنت، وعيناها ممتلئه بالدموع.

الفصل الثاني

رحلةإلي المجهول

وبعد متابعتها يوميًا للأوضاع في إيطاليا، اتضح لها أن أعداد المصابين بالمرض تزداد يوميًا.

وما إن ازدادت الحالات عن بعض الآلاف، حتى قررت إيطاليا وضع بعض الإجراءات لتحمي مواطنيها.

اطمأنت قليلًا خصوصًا أن المرض في مدينة يوهان الصينية، بدأ ينحسر بحسب وكالات الأنباء العالمية، بعد أن تم إتخاذ إجراءات صحية لازمة.

بقيت لأيام تتابع الأحداث الحاصلة في إيطاليا، وتتنقل بين القنوات الإيطالية.

وأثر عدم إستجابة الشعب الإيطالي للإجراءات الصحية الموصى بها مما أدى إلى ازدياد عدد المصابين، قررت الحكومة الإيطالية التوجه إلى الإغلاق التام، وتطبيق الحظر على المواطنين بعدم الخروج من المنازل.

وعندما سمعت بالخبر أصابها حالة من الجنون والذعر، خصوصًا أن جدتها "فرنسيسكا" مقيمة في إيطاليا وليس لها من يرعاها.

حاولت الاتصال بـجدتها المقيمة في مدينة بيرجامو، ولكنها لم تتمكن من التواصل معها خصوصًا أن جدتها لم تكن تمتلك هاتفا.

سيطر الخوف عليها فجدتها كبيرة في السن، وتعاني من

أمراض مزمنة.

في هذه الليلة لم تقدر على النوم، وعندما عاد "ماريو" من المعهد كانت ما تزال جالسة على الأريكة، تشاهد التلفاز، وتتنقل بين القنوات الإيطالية.

استغرب، وسألها عن سبب استيقاظها إلى هذا الوقت المتأخر من الليل.

فبقيت صامتة، وأعاد سؤاله.

فبكيت، وقالت بحرقة أن الوضع في إيطاليا ليس على ما يرام.

قال بأنه شاهد ذلك عبر الإنترنت، ولكن الأمور ستكون على ما يرام بعد أن فرضت الحكومة الإيطالية الحجر المنزلي على المواطنين.

تغيرت ملامح وجهها وهي تنطق اسم حبيبتها: "فرنسيسكا".

سألها من تكون "فرنسيسكا" وما بها؟

"فرنسيسكا" تكون جدتي وهي تعيش في بيرجامو، وتافقت وهي تسأل نفسها من سيرعاها؟

من سيلبي حاجاتها؟

تفاجىء بكونها لها جده ولم تقل له أي شيء عنها من قبل فإلتفت لها.. لكِ جدة في بيرجامو؟ لم أكن أعلم!

أخبرته بأن "فرنسيسكا" هي جدتها لأمها، وهي امرأة مسنة، والآن كل ما يشغل بالها أنهم طبقوا الحجر المنزلي فمن

سيقوم برعايتها.
أخبرها بأنه من خلال متابعته للأخبار، عرف بأن الجيش الإيطالي والسلطات الإيطالية ستتكفل بالأمر.
حاول فقط أن يجعلها تهدأ، ولكنه يعلم أن الوضع يزداد سوءاً..
وفي صباح اليوم التالي وعند افاقتها من نومها فتحت التلفاز، فسمعت أن الأوضاع في بيرجامو تزداد سوءًا، وأن المرض قد تفشى هناك خصوصًا بين كبار السن.
أصابها حالة من القلق والهلع، وبقيت طوال الوقت تفكر بجدتها، وكيف هي حالتها الآن.
في هذه الأثناء، قررت الحكومة الألمانية إعلان حالة الطوارىء العامة في ألمانيا التي ترافقت مع الإغلاق العام لكل المؤسسات، وتوقف حركة الطيران، ومنع حركة التجول والتنقل خصوصًا من وإلى إيطاليا.
ازداد المرض في بيرجامو تحديدًا وهو ما تناقلته وسائل الإعلام العالمية عبر التلفاز، فقررت أن ترسل إحدى صديقاتها في إيطاليا للاطمئنان على جدتها.
وبالفعل اتصلت بصديقتها "ماريا" وارسلت لها عنوان جدتها وطلبت منها أن تذهب وتطمنها عليها..
حاولت صديقتها "ماريا" أن تتكفل بهذه المهمة، ولكن بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذتها السلطات الإيطالية، تم منع

"ماريا" من الدخول إلى بيرجامو بعد أن تم عزل مقاطعة لومبارديا بالكامل عن بقية المقاطعات الإيطالية.
اتصلت بـ "صامويلا"، وأخبرتها بذلك، وقالت لها بأن السلطات الإيطالية تمنع أي شخص غير مقيم في لومبارديا من الدخول إليها.
حزنت "صامويلا" كثيرًا لما سمعته منها..
وفي الليل، وأثناء نومها، استفاقت فجأةً، وقامت إلى خزانتها، وأحضرت أوراقها، وبدأ تبحث عن شهادة ميلادها.
وبعد بحث استغرق ما يقارب ساعة، تمكنت من العثور على شهادة ميلادها التي كتب فيها بأنها كانت قد ولدت في أحد مستشفيات لومبارديا.
أيقظت "ماريو" من نومه، وأخبرته أنها سوف تذهب إلى إيطاليا بنفسها للاطمئنان على جدتها.
مانع "ماريو" قرارها خصوصًا أن كل الطرق إلى إيطاليا أصبحت مغلقة، ولكن أمام إصرارها وتهديدها بقطع علاقتها معه حاول إيجاد حل لها.
فهي لم تفكر في هذا إلا عندما حاولت تنفيذ كل الحلول بالتوصل إلي جدتها، ولكن أغلقت أمامها كل السبل التي من خلالها يمكنها أن تطمن على جدتها، لذا أصرت على الذهاب إلى إيطاليا بنفسها.

كانت كل المطارات مغلقة، وأوروبا المفتوحة متقطعة إلى أجزاء لا يدخل إليها ولا يخرج منها أحد.
كابوسٌ أصاب أوروبا، لا مواصلات، لا تنقل، لا عمل، ولا تجارة، ولا حتى الخروج للتنزه.
أوروبا التي لم تكن تنام أصبحت صامتة خرساء، لا يُسمع فيها سوى صوت المركبات التي تنقل المصابين بهذا الوباء.
شيئًا فشيئًا، تحولت أوروبا إلى بؤرة للوباء، فغدت غير مرغوبة رغم أنها كانت حلم معظم سكان الأرض.
ومع إجراءات التصدي لهذه الجائحة، أصبحت أوروبا مقبرة للحريات، وسجنًا كبيرًا تتجول فيه الوحوش البرية، ولا يتنقل بين أرجائه سوى رجال الشرطة وفرق الإنقاذ.
إزاء هذا الوضع الكارثي، وبعد محاولاتها الفاشلة التي تمثلت بالحضور إلى مطار التيغل والشونيفيلد المطارين الموجوين في مدينة برلين أكثر من مرة، أدركت أنه لا سبيل للوصول إلى إيطاليا سوى العبور برًا.
قامت بالتواصل مع شركات النقل البرية، إلا أن هذه الشركات أخبرتها بأنها لا تسير رحلات في هذه الفترة بسبب انتشار الفيروس حفاظًا على صحة المسافرين.
أغلقت كل الطرق أمامها، رغم أن "ماريو" حاول مساعدتها، ولكنه لم يقدر على فعل أي شيء.. فازاددت حالتها النفسية

سوءًا فبدأت تركض بين الناس التي تعرفهم محاولة إيجاد حل عند أحدهم، وبعد الكثير من الاتصالات والاستفسارات، أخبرتها إحدى صديقاتها أن هناك سائق أجرة قد يقوم بنقلها إلى النمسا بمركبته الخاصة لأن أصحاب المركبات العمومية ليس مسموحا لهم العمل في هذه الفترة.

فقامت ومن خلال صديقتها بالعثور على رقم هاتف ذلك الشخص الذي طلب مبلغًا خياليًا، واتفق مع على أن ينقلها بمركبته الخاصة، وليست العمومية وذلك لأن النقل بالأخيرة ممنوع قانونًا.

فوافقت، وعندما عاد "ماريو" من المعهد أخبرته أنها ستغادر غداً مع السائق "خوسيه" الذي سينقلها إلى النمسا.

هز رأسه، وذهب إلى الأريكة، وجلس يفكر بما سوف تخبئه الأيام القادمة، فحتى حبيبته ستتركه وتسافر ولم يقدر على السفر معها..

في هذه الليلة، لم ينم كل منهما حتى أشرقت الشمس.

وبعد إشراق الشمس بساعة، حضر السائق بسيارته، وانتظر أمام منزلهم..

حمل "ماريو" حقيبتها وكأنه يحمل كفنها بيده، وكانت دموعه تنهمر كنهر جار.

وضع "ماريو" حقيبتها في صندوق السيارة، ثم طلب منها أن

تنتظر قليلًا حال ما يعود.
فصعد إلى الشقة، وجلب الحقيبة الطبية وقال لـ"صامويلا": احمليها معك فقد تحتاجينها.
سمعت كلامه، وغمرته غمرة الوداع، وكأنه فراقٌ إلى الأبد، وهي تبكي، وتطلب منه السماح.
وأخبرته بأنها لم تكن تريد المغادرة، ولكن هذا ما حصل.
كما وعدته بأنها سوف تعود بعد انتهاء هذه الأزمة، والاطمئنان على جدتها.
هز رأسه وقال لها: باق على الوعد، وسأبقى أنتظركِ حتى تعودي.
ابتسمت وهي تقول: سأعود أيها البروفيسور الشاب، سأعود من أجلكَ فقط، أمسكت هاتفها وارسلت رسالة إلي مديرتها بأنها ستأخذ اجازة لمدة شهر لأنها ستسافر للاطمئنان على جدتها..
امسكت يد حبيبها، كانت توصيه بالاعتناء بنفسه، وتارةً بالنوم الكافي، وتارةً بالطعام الجيد، وأخرى بأن يخفف من شرب القهوة التي كان متعلقًا بها كما لو كانت صامويلا نفسها.
كانت تحدثه وكأنها أمه... تلك الأم التي لا تملّ من تكرار الوصايا ذاتها، بقلقٍ محبّ لا يهدأ..
وما إن صعدت في المركبة حتى نزلت منها مرة أخرى، وحضنته

مرةً أخرى حضن الطفل لأمه المغادرة.
أخبرها "خوسيه" صاحب السيارة والذي تأثر بالمشهد الذي أمامه بضرورة الانطلاق لكيلا يتأخرا في الطريق.
انطلقت المركبة وبداخلها "خوسيه" و"صامويلا"، ولاحقهما "ماريو" ينظره، وفي كل متر تمشيه المركبة ينفجر بركان دموع من عينيه..
بقي على هذا الحال، حتى اختفت المركبة عن الأنظار.
صعد "ماريو" حزينًا إلى الشقة، وجلس على الأريكة كئيبًا كارهًا للدنيا وما فيها، ناقمًا على الحياة، وكأنها انتهت بالنسبة له.
كان رحيلها بمثابة شهادة وفاة له، كأنه دفنٌ وهو حي.
كان ميتًا في هيئة شخص حي، يسير فوق الأرض لا تحتها، يجاور الأحياء دون أن يكون واحدًا منهم، يتحدّث، ينظر، ويتنفس، لكن بلا روح، فرُوحه قد غادرت مع من تحب..
فأصبح ميتًا يمشي على الأرض، وكم من أمواتٍ بيننا يتنفسون، مدفونون، ولكن ليس في القبور، بل في اتساع هذا الكوكب الذي تحوّل إلى قبر لا جدران له.
موته ذاك كان أقسى من الموت الأبدي، فالموت الحقيقي قد يحمل في طياته راحةً، أو حتى بداية جديدة... أما موته، فكان عذابًا بلا نهاية، حياةً خاوية لا تشبه الحياة.
فما قيمة الجسد حين يغادره القلب؟

وقد غادر قلبه منذ أن رحلت حبيبته ومنذ ذلك وهو يسير في الحياة كقشرةٍ بلا نواة، كظلٍ فقد صاحبه..

في تلك الأثناء، كانت داخل السيارة، شاردة الذهن تفكر فيه، فمن سيرعاه في غيابها؟ ومن سيهتم بأموره الصغيرة؟ من سيقوم بالتسوّق، ومن سيجلب له الأشياء التي يحبها؟

أسئلة كثيرة كانت تطاردها طوال رحلتها، ولكنها وجدت أمامها سيارة إسعاف تسير مسرعة..

فقالت.. ربما هناك من ينقل مصابين إلى المستشفى الآن..

فردّ "خوسيه" بهدوء:"ممكن".

بعد قطع بضع كيلومترات، لمح "خوسيه" شخصًا ممددًا على جانب الطريق. أشار إليها وقال بقلق: "انظري هناك"

شهقت وفتحت عيناها من الصدمة وصرخت طالبة منه التوقف على الفور.

توقف "خوسيه" سريعًا، وركض نحو الرجل الملقى على الطريق. لكنها نادته محذّرة:

لا تقترب لا نعلم حالته قد يكون خطيرًا..

ثم أكملت كلامها..

علينا الاتصال بالشرطة وإبلاغهم.

أمسكت هاتفها واتصلت بالشرطة، وأبلغتهم أن هناك رجلًا ممددًا على جانب الطريق، يبدو في حالة سيئة بالكاد يلتقط أنفاسه.

ردّ عليها الشرطي المناوب بلهجة جادة:

أرجوكم، لا تقتربوا منه، سنصل فورًا لنقله إلى المستشفى..

وما هي إلا دقائق معدودة حتى حضرت الشرطة برفقة سيارة الإسعاف، ونقلت الشخص المصاب، وقام الضابط بعدها بشكرها على اتصالها.

ثم ركبت مع "خوسيه" السيارة، وتابعوا سيرهم.

على طول الطريق، كانت الشوارع فارغة، وكأنها طريق مهجورة ولا يسكنها إلا الحيوانات الضالة التي تسير على الطريق تبحث عن غذائها.

كانت ألمانيا في هذه الأثناء مدينة أشباح، وكأن البشر انقرضوا منها، وحل مكانهم حيوانات ضارية.

واستمر الحال على هذا المنوال، حتى وصلت "صامويلا" ومن معها إلى الحدود الألمانية النمساوية.

عند تقاطع الحدود، كانت الشرطة الألمانية تتمركز هناك وهذا مشهد غير مألوف، إذ إن هذه الحدود مفتوحة بالعادة، ولدى التدقيق من قِبل حرس الحدود قال الشرطي لـ "خوسيه":

يمكنكَ أن تخرج، ولكن لا يمكنك الدخول إلى ألمانيا مجددًا.

فأخبر "صامويلا" بما قاله له الشرطي وأنه لن يستطع المتابعة، وعلينا العودة إلى برلين مرة أخرى.

رفضت "صامويلا" كلام "خوسيه" وقالت له: إذا أردت العودة فعد وحدك، أنا سأكمل رحلتي، حتى لو كان ذلك سيرًا على الأقدام.

وبعد المحاولات الفاشلة لإقناع "صامويلا" بالعودة.

قال لها "خوسيه": إني اعتذر منك، ولكن لا يمكنني المتابعة، فأنا لدي عائلة في برلين ويجب أن أعود إليهم.

تفهمت "صامويلا" موقفه وأخذت أمتعتها وبدأت بالسير حتى وصلت إلى مركز الشرطة النمساوية.

هناك سألها الشرطي إلى أين الوجهة؟

قالت "صامويلا": إلى إيطاليا.

فأخبرها الشرطي أن هذا مستحيل.

استعطفته "صامويلا" وبدأت بالبكاء، وقالت له بأن جدتها في إيطاليا وعليها أن تطمئن عليها.

فرقّ قلب الشرطي وقال لها: سأسمح لك بالدخول، وفي النمسا عليكِ أن تتدبري أمورك.

شكرته، ودخلت داخل الأراضي النمساوية سيرًا على الأقدام.

بدأت بالسير حاملةً أمتعتها على ظهرها، وبقيت على هذا الحال ما يقارب ساعتين، تسير وتنتظر أية سيارة قد تأتي لتركب بها.

وبينما هي تسير إذ وسمعت صوت سيارة تأتي من خلفها فالتفتت، ووقفت في منتصف الطريق وسألت السائق إذا ما يمكن أن يأخذها في طريقة إلى مدينة قريبة لكي تعود بعدها، وتذهب إلى قرية زيلامسي في النمسا، ومنها إلى إيطاليا.
أجابها السائق: إنه وفقًا للقوانين الجديدة من غير المسموح أن يركب السيارة أكثر من شخصين، لكن بعد أن ترجته وافق السائق على أن تركب معهم، ولكنه اشترط عليها، قبل أن تصعد، أنه في حال صادفوا الشرطة، فعليها أن تتظاهر بالمرض، وتدّعي أنه ينقلها إلى المستشفى.
ثم أضاف بنبرة واثقة: يجب أن تلتزمي بما اتفقنا عليه.
وافقت بصمت، وصعدت إلى السيارة، وجلست في المقعد الخلفي.
كانت الرحلة تمتد لما يقارب الساعتين، ساعتان من الصمت، والقلق، والغموض.
لم تفعل شيئًا طوال الطريق، فقط كانت تحدّق من النافذة، تتابع ما يمرّ أمامها من مشاهد خلابه أشجار كثيفة، وغابات متشابكة، وحيوانات ضارية وأخرى ضالة تمرّ هنا وهناك، مما جعل جسدها يرتجف من الخوف.

كان السائق يمضي في طريقه بثبات، بينما يتحدث إلى صديقه قائلاً: لا أدري ما الذي يحدث في هذا الكوكب، كأن الطبيعة بدأت تطرد الإنسان منها، وتعيد كل شيء إلى الحيوانات.

صمت للحظة، ثم تابع:

الطريق في النهار يشبه مدينة أشباح، فكيف هو في الليل؟

كانت تستمع إلى حديثه دون أن تعلّق، فقط اكتفت بالتحديق في الخارج، حيث الظلال تتكاثف، والصمت يزداد ثقلاً.

لم يكن على الطريق سواهم، فالسيارة التي تنقلهم بدت كأنها تسير في عالمٍ مهجور، لا يقطعه سوى صوت صفارات الإسعاف أو سيارات الشرطة من حينٍ إلى آخر، كأنها تذكير بأن هناك حياة... أو بقايا منها، في مكانٍ ما.

بعد مرور ساعتين على الانطلاق، سألها السائق عن العنوان الذي تقصده.

فردت.. لا أعلم في الحقيقة، ولكن أريد أي فندق أبيت فيه الليلة.

كانت معظم الفنادق قد تحولت إلى مستشفيات لاستيعاب المصابين الذين يزدادون كل ثانية، بحث السائق لـها عن فندق، فلم يجد أي فندق قد تبيت فيه.

اقترح عليها أن تذهب وتبيت معهم في البيت، وطمأنها أن زوجته وابنته يعيشان معه، هنا فقط قبلت عرض هذا السائق.

وما إن قام السائق بإيصال صديقه إلى منزله ثم أكمل طريقة وذهب برفقة "صامويلا" إلى منزله.

هناك استقبلته زوجته وابنته، فقدم لهما "صامويلا" وأخبرهما أنها ستبيت معهم هذه الليلة وستغادر في الصباح.

رحبت زوجته بالأمر، ولكن ابنته غضبت وقالت: من يدري لعلها تحمل المرض القاتل الحديث.

طمأنتها "صامويلا" بصوتها الهادىء وبابتسامة بسيطة..

لا تقلقي، أنا لا أحمل هذا المرض.

فهدأت الطفلة قليلًا، ورحّبت بها بلطف، ثم جلستا معًا في الغرفة.

بعد أن استراحت قليلًا، وتناولت بعض الطعام التي أحضرته لها زوجته، أمسكت بهاتفها واتصلت بـ "ماريو" لتطمئنه على حالها.

قصّت عليه ما حدث معها، منذ لقائها بـ "خوسيه"، وحتى استقبال عائلة "توماس" لها.

كان "ماريو" يستمع، لكن ما إن أنهت المكالمة، حتى انفجر غاضبًا، يحدث نفسه بصوتٍ عالٍ:

لماذا كل هذا؟

ماذا فعلنا لنُبتلى بهذا الشكل؟

ثم ردّ على نفسه بمرارة:

بل فعلنا... فعلنا الكثير.

حوّلنا الجنة التي منحتها لنا السماء إلى غابةٍ مسعورة، يأكل القوي فيها الضعيف، وينبذ الإنسان أخاه الإنسان.

صمت لحظة، وأكمل..

غريبٌ هذا الكائن البشري...

يرتكب أبشع الجرائم بحق أقرب الناس إليه، بدافع أنانيته العمياء.

أنانية جعلته يظن أن الأرض وُجدت له وحده، فطرد منها غيره، حرم البشر والحيوانات من حقّ العيش، وكأن الحياة حُكرت عليه دون سواه.

اعتقد أنه أقوى من خالقه، وأنه الآمر الناهي فيها، فحرمه ربه نعمةً كانت بيده ولم يُطلب منه سوى أن يتقاسمها مع الآخرين.

عالم غابت فيه الإنسانية، سيطرت عليه الكراهية، وانتشرت فيه الأنانية، ومزقت فيه أجزاء من البشرية.

إن عالمًا كهذا كان لا بد أن يزول، ليقوم نظام جديد كما يشاء رب النظام.

درسٌ للبشرية: من أعطى الناس الحياة قد يحرمهم منها، ومن منحهم الحرية قد يحجبها عنهم.

مسكين هذا الإنسان...

ظن أنه المتحكم بمصيره، يرسم حياته بيده، ويضع لنفسه حدود التي يشاء.
نسي أن هناك ربًا فوقه،
فأجابه خالقه:
"كل شيءٍ بيدي، أنا من أعطي وأنا من آخذ، وأنا من أسمح ومن أمنع، فلا تجري الأمور بإرادتك بل بإرادتي".
في هذه الأثناء، قامت "صامويلا" وبدلت ملابسها، وارتدت ملابس النوم، وجلست على الأريكة تحدق في الظلام الظاهر من النافذة وتفكر.
في نفس اللحظة طرق الباب، ودخلت إليها ابنة "توماس"، وجلست على الكرسي المقابل للسرير، وبدأت في الحديث لها تسألها عن قصتها.
فقصت عليها بعض تفاصيل حياتها، وظلتا تتجاذبا أطراف الأحاديث حتى وقت متأخر من الليل.
أحبتها ابنة "توماس" وقدّرت في عينيها إصرارها، ونضالها في سبيل الوصول إلى جدتها، فلامس قلبها ذاك العزم الصامت.
عندها، لم تتردد، قررت أن تمدّ لها يد العون، وتساعدها بكل ما تستطيع، فسألتها عما يمكن أن تساعدها فيه؟
أخبرتها "صامويلا" أنها تريد سائقًا ليوصلها إلى إيطاليا!
أجابتها بأنها ستحاول أن تتدبر الأمر.

في الصباح الباكر، ذهبت إلى والديها، وسألتهما إذا ما كان العم "ليو" يستطيع نقلها بعربته إلى إيطاليا؟

أجابها والدها بأنه لا يعتقد ذلك، لأن إيطاليا مغلقة بالكامل لا دخول إليها ولا خروج منها.

سمعت حديثه معها، فأقتربت وقالت: أريد منه أن يوصلني إلى الحدود النمساوية فقط!

.. سوف أسأله، وأخبرك.

اتصل بالعم "ليو" وبدأ يحدثة بطريقته المعتاده معه، كيف حالك أيها العجوز أتمنى أن تكون بخير؟

فرد عليه: طالما أنا بخير، فأنا لست عجوزًا، ولكنني أعاني من الملل بعد أن منعتنا الدولة من العمل في هذه الفترة.

فطلب منه مساعدته.

فأجابه ومتى تقاعست عن مساعدتك يا، ولكن بِمَ تريدني أن أساعدك؟

فرد عليه.. هناك فتاة تريد العودة إلى إيطاليا، وأنت تعلم أن حركة الطيران والقطارات متوقفة.

فسأله.. هل تريد مني أن أوصلها إلى إيطاليا بسيارتي؟

إذا كنت تستطيع، ستدفع لك أجرتكَ كاملة.

وعندما سأله.. عن ساعة الانطلاق رد عليه في الحال..

فطلب منه أن يجعلها تقوم بتجهيز أغراضها وسيأتي خلال ساعة، وب مرور ساعة وصل "ليو" بسيارته وأوقفها أمام بيت "توماس".

فودعت "توماس" وعائلته، وشكرتهم على الاستضافة والمساعدة، ووضعت أمتعتها في المركبة وانطلق "ليو"..

كان كل شيء لا يصدق، هدوء لا يخرقه إلا صوت حفيف الشجر من هنا، أو قفز حيوانٍ بري أمام السيارة من هناك.

رأت "صامويلا" الماعز الوحشي لأول مرة يتجول دون رقيب أو حسيب، وكأن الشوارع له وحده.

ثم راح "ليو" يحدثها عن ذكرياته وكأنه يعرفها من قبل ذلك، وبدأ في قص حكايته بأنه قضى طوال عمره على الطرقات من وإلى النمسا، ويذكر لها عند كل منعطف حادثة.

وروى لها قصة وقوعه في حب فتاة، حب من طرفه فقط، وأنها لم تحبه كونه أشقر، وقصة تعرفه على زوجته المتوفية.

فسألته حينها عن سبب عدم زواجه بعد وفاة زوجته، فأخبرها بكلام فلسفي بأن الوفاة لا تنهي لقاء الأرواح، فالأجساد وحدها ترحل، أما الأرواح التي أحببناها، فتظل تحوم حولنا، تلامس قلوبنا في لحظات الإشتياق، وتؤنسنا في وحدتنا كأنها لم تغب أبدًا.

من هنا، فالأجساد تدفن تحت الأرض، ولكن الأرواح تصعد إلى

السماء لا يوجد بيننا وبينها عازلٌ أو حائل، لذلك وفاة شخصٍ ما ليس سببًا لانقطاع حبنا له، فهي إن كانت سببًا كافيًا لدفنه فهي ليست سببًا كافيًا لنسيانه كالغائب عنا بداعي السفر، فهذا غائبٌ أيضًا بداعي الموت.

كما أنني قد قرأت أنه في الحياة الآخرة يكون زوجك هناك زوجك الأخير، لذلك فأنا أريدها أن تكون زوجتي هناك أيضًا.

فزواج جديد قد يكون حائلًا من عودتنا إلى بعضنا البعض.

أخبرته حينها أن هذا وفاءٌ جميل، ولكنه يرهق القلوب، فيجعلها تنزف بعد كل يومٍ يمر.

أجابها "ليو": بل أنت مخطئة يا ابنتي، بمرور كل يوم يقترب الميعاد، ميعاد لقائنا، أنا وهي.

لذلك، انتقِ على هذه الأرض من تريدين رؤيته في السماء، وكوني حذرةٍ في اختيارِكِ الأخير.

فالله سيقدم لنا كل ما نحب ومن بينهم من نود أن نكون معهم.

فحياتنا على هذه الأرض أيامٌ معدودة، ولكن هناك في السماء أيامٌ باقية.

وبعد السير لوقت قصير، أحس "ليو" بتعبٍ، فقرر الاستراحة، وما إن ركن السيارة على جانب الطريق حتى أُغمي عليه.

ظنت أنه سيغمض عينيه لدقائق، ولكن بعد وقت قصير أحست

بشيء غريب أن العم "ليو" لا يتحرك.
فنادت عليه باسمه، لم يستجب، ثم هزته، فلم يستجب أيضًا.
ركضت إلى صندوق السيارة، وأحضرت المحفظة الطبية،
وصارت تمسح وجهه بالمطهرات وتحاول أن تُنشقه إياها حتى استفاق.
هنا، نظر إليها ووضع يده على يدها وقال وهو يبتسم: إن موعد لقائنا لم يحن بعد..
ضحكت وساعدته على النهوض، فنهض وأخذ يمشي قليلًا وهو يمسك "صامويلا" بيدها لعله يستنشق هواءً نقيًا.
وهو ماسك "صامويلا" من يدها، راح "ليو" يقول لها بأن النمسا حزينة وهي مغلقة، يتيمة، لا قيمة لها.
ثم هز برأسه وقال: ما قيمة الحياة والشوارع وهي فارغة!
ونظر إليها وقال: إن جيلكم لا يعرف معانٍ كثيرة.
تفاجأت مما قاله، وطلبت منه أن يوضح مقصده.
فرد عليها.. صباح الخير وجهًا لوجه ليست كصباح الخير عبر الهاتف، فملامح الوجه وصوت الحضور لهما نبرة مختلفة.
أن ترى الشخص أمامك، أن تشعر بنظراته وحركاته، أن تسمع نبرة صوته، كل هذا يكشف حقيقة لا يمكن أن توصلها رسالة، ولا سطران في دردشة عابرة.
كلمة "أحبكِ" حين تقال وجهًا لوجه تحمل حرارة وصدقًا، تختلف

تمامًا عن "أحبك" مكتوبة على شاشة.
صرنا نخاف أن نرى بعضنا، أن نلمس بعضنا، أن نعانق أو نقبل بعضنا البعض.
لكن ما قيمة الحياة إن فقدت كل هذه المعاني؟
ما قيمة الإنسان من دون دفء أخيه الإنسان؟.
كم من تفاصيل كنّا نراها بسيطة، صارت اليوم أمنيات: السير في الهواء الطلق، تبادل التحايا، احتساء القهوة في مقهى، السفر، جلسة مع الأصدقاء، ضحكات الأطفال في الشوارع.
كل شيء أصبح مقيدًا: لا حرية تنقل، لا إمكانية للعمل، لا لقاءات، لا مدارس، لا تعليم، لا شيء.
نجلس في منازلنا، وكأننا تحت الإقامة الجبرية، ولكنها ليس بأمر من القضاء، بل بأمر من رب القضاء.
حياتنا صارت عبارة عن عيشة في قبور واسعة، نأكل ونشرب فقط... دون حياة تُذكر.
إلا أنه رغم اختناق الإنسان، فهناك من يتنفس، فالطبيعة تنفست، والحيوانات أعادت سلطتها على الكرة الأرضية.
هي هكذا، يوم لك ويوم عليك، يوم للإنسان ويوم للحيوان والطبيعة.
كانت صامته فقط تستمع إلى كلامته، وبدأت تفكر في كلامه..

وتمتمت داخلها: إننا لا نعلم قيمة الأشياء إلا حين تزول من بين أيدينا.

حينها سألها "ليو" شابة صغيرة مثلكِ ما الذي يدفعها لتخاطر بحياتها، وتتنقل من مدينة أشباح إلى أخرى لتصل إلى إيطاليا التي هي الأخرى مدينة أشباح.

أجابته من أجل جدتي فهي تعيش وحيدة هناك، ولم أتمكن من التواصل معها، وأنها قلقة بشأنها.

طبطب العم "ليو" على كتفها، وطلب منها أن تصعد السيارة ليكملوا طريقهم.

صعد معًا وهي معه وتابعا طريقهما.

بعد بضع ساعات، وصلا إلى الحدود النمساوية الإيطالية.

في الجانب النمساوي، ألقى العم "ليو" التحية على الشرطة النمساوية وردوا عليه التحية، ثم سألوه عن وجهته، فأجاب بأنه يريد العبور إلى إيطاليا.

هنا، أخبره الشرطي أن الخروج إلى إيطاليا أو الدخول منها غير مسموح نظرًا لتفشي المرض بها.

فنزلت من السيارة وذهبت للشرطي لتبلغه بأنها إيطالية وتريد العودة إلى وطنها.

ولكن الشرطي رفض وكان رده صارماً.. بأنه فقط يريد أن يحافظ على حياتها، فمنع دخولها إلى إيطاليا في الوقت

الراهن، وعليها الانتظار حتى تمر هذه الأزمة.
طلب الشرطي منهما العودة إلى داخل النمسا.
ورغم محاولتها لم يتغير اي شيء من رده فعله حتى بعد ما شرحت له ما يمكن أن يحدث لجدتها..
قام العم "ليو" بتشغيل سيارته، وعاد إلى داخل الأراضي النمساوية.
وبعد بضع كيلومترات، طلبت منه التوقف.
وعندما توقف فأخبرته بأنها ستنزل، وتستخدم الغابات، وتتخطى الحدود وتدخل إلى إيطاليا من خلالها.
ولكنه رفض فكرتها وأخبرها أن الوحوش البرية مستوطنة في هذه الغابات.
لكن بعد إصرارها على الدخول إلى إيطاليا، أخبرها "ليو" أن هناك طريقًا بريًا يمكن من خلاله الدخول إلى إيطاليا سيرا على الأقدام، وأنه كان يستخدمه وهو شاب قبل فتح الحدود الأوروبية على بعضها البعض.
وأضاف، أن الطريق قد يستغرق ثلاث ساعات مشيًا على الأقدام.
فرحت وبدأت الابتسامه تظهر على ملامحها وطلبت منه أن يوصلها إلى أول الطريق وهي ستكمل وحدها، فتوجه معها "ليو" بمركبته إلى أول الغابة.
فنزلوا من السيارة، ثم شرح لها أن عليها أن تمشي على طول

الطريق لمدة ثلاث ساعات، ولكن عليها أن تحترس من الحيوانات المفترسة الموجودة في هذه الغابة.
ثم ذهب إلى صندوق السيارة، وأحضر لها فأسًا، وأعطاها إياه، وأخبرها أنها قد تحتاجه إذا ظهر لها حيوان مفترس على طريق الغابة.
أخذت منه الفأس، فغادر "ليو" المكان بعد أن قبّلها وأرشدها إلى طريقها.
أما هي فبدأت تمشي في الغابة، كالضرير التائه الذي يمشي دون الالتفات يمينًا أو شمالًا لا يفعل شيئًا سوى التقدم في اتجاه مستقيم.
حاولت استخدام هاتفها لتستدل على الطريق، ولكن كانت الغابة كشيء معزول عن العالم لا يحظى التليفون به بالإرسال.
فكانت الغابة شيئًا مخيفًا، لا تسمع فيها إلا حفيف أوراق الشجر وزقزقة العصافير، وسكون الصوت، خوفٌ متواصل سيطر عليها.
ولكنها أكملت طريقها ومشت ما يقارب الساعتين، وقررت الاستراحة لكنها سمعت صوتًا غريبًا يأتي من جهة غير معلومة، تلفتت حولها، فلم تجد شيئًا، وازداد هذا الخوف الذي ارتاب "صامويلا" قررت إلغاء فكرة الاستراحة.
راحت تمشي مسرعةً حتى ظهر لها من بعيد شكل يشبه شكل بيتٍ، أسرعت مشيتها في هذا الاتجاه، وإذ هو ببيتٍ مهجور،

وما إن حاولت الدخول إليه، حتى أتاه رجل عجوز من ورائها، وصرخ.
فزعت وكادت أن تسقط أرضًا، ولكن ما إن تحدث هذا العجوز باللغة الإيطالية حتى اطمأنت أنها أصبحت داخل الحدود الإيطالية.
كان الرجل يتشح بالقذارة، كأن الماء لم يمسّ جسده منذ عامٍ أو يزيد.
ملابسه بالية، ورائحته نفّاذة تُنذر بالبؤس الذي يسكنه.
وكان هذا العجوز مخمورًا، يترنّح وفي يده زجاجة خمرٍ نصف فارغة، يقبض عليها كأنها ملاذه الأخير في هذا العالم البارد.
سألته حول أقرب طريق يمكن من خلاله أن تصل إلى الطريق المتجهة إلى ميلانو، فأخبرها الرجل بأنه سيرشدها إذا ما اشترت له زجاجة ويسكي.
وعدته أنها ستعطيه نقودًا لشراء الزجاجة إذا أرشدها.
فقام هذا الإيطالي بإيصالها إلى الطريق العمومي، وبعد أن أعطته النقود التي وعدته بها فهي قد اتت معها ببعض النقود الإيطالية تحسباً لأي ظرف، أخبرها هذا الرجل بأن هناك محطة وقود بعد بضعة كليومترات على جانب الطريق.
مشت حتى وصلت إلى تلك المحطة، فتناولت كوبًا من القهوة وزجاجة مياه، وسألت العامل هناك عن كيفية الذهاب إلى

مقاطعة لومبارديا.
أخبرها العامل بأن الدخول إلى لومبارديا ممنوع، فأخبرته بأنها تعلم ذلك، ولكنها من المقاطعة نفسها لذلك سيسمحون لي بالدخول.
سمع حديثهما شخص كان يملأ سيارته بالوقود، فقال لـها أنه ذاهب إلى مدينة تتقاطع حدودها مع مقاطعة لومبارديا، وأنه قد يأخذها معه إذا رغبت بذلك.
سعدت بما سمعته، ووضعت أمتعتها في صندوق سيارة هذا الرجل.
وانطلقت السيارة، وكان كل شيء غريب عليها، وكأنها ما زالت في الغابة.
أشجارٌ يمينًا وشمالًا، هدوءٌ يصحبه خوف من الوحدة، حيواناتٌ مفترسةٌ في كل مكان.
وأثناء جلوسها في السيارة وجدت هاتفها يرن واسم حبيبها يظهر أمامها، وبدأت تخبره عن كل ما حدث معها، وهي تبكي.
حزن "ماريو" لما سمعه منها، ولكنه لم يتمكن من إكمال الحديث معها، وكأن شيئًا قبض على قلبه.
فأنهى المكالمة، وذهب إلى تلك الأريكة التي كانت تجلس بجانبه عليها، وجلس عليها يتذكرها..

ثم نهض كئيبًا، وذهب إلى عمله في المعهد محدقًا في الحاسب الآلي، لا يفعل شيئًا سوى أن ينظر فيه.
رآه البروفيسور بهذه الحالة، فذهب إليه لمواساته وتهدئته.
فبكى "ماريو"، فاستاء "مولر" ذلك وقال له: يا ولدي أتحبها كل هذا الحب.
لم أرَ أو أسمع عن أحد أحب أحدًا هكذا قط.
ثم أكمل "مولر" كلامه وأحب ممازحته فسأله عن سبب حبه لها بهذه الطريقة وطلب منه أن يقول شيئًا فيها.
فتنهد ووضع يده على خديه وبدأ لسانه ينطق بما يشعر القلب..إن القلب ينزف شوقًا إليها،
لا يدرك للصبر معنى، ولا للانتظار حدودًا.
هو كالغريق الذي يتلهف لنفس أخير،
كالمحتضر الذي يترقب نفحة حياة،
كالمحترق الذي يتوسل نسمة تبرد لهب الحريق.
الاشتياق هو الحب عن بعد،
هو الشعور بالغائب وطلب وحضوره
الاشتياق أعلى قدرًا من الحب،
فهو حبٌ اقترن بالألم، وتكلل بالبعد، وشُحن بالحنين.
الاشتياق يا صديقي ما هو إلا سكرة من سكرات الموت،
لا يُفيق منها القلب إلا برؤية من يحب.

صفق كل من في المعهد مما سمعوه منه..
تفاجأ بردّة فعلهم، لكنّه ابتسم بهدوء، وقال:
ما أجمل الحب..في هذه الأثناء، كانت "صامويلا" قد وصلت إلى منطقة التقاطع مع حدود لومبارديا، وكأنها المرة الأولى التي تزور فيها هذه المقاطعة.
بدت لومبارديا وكأنها دولة أخرى محاطة بالجيش الإيطالي من كل النواحي، ولاحظت أن الدبابات محيطة بها أيضًا، وكأن إيطاليا تخوض حربًا، الدخول إليها يبدو صعبًا لا بل مستحيلًا.
عند تقاطع الطريق، طلب منها السائق أن تنزل من السيارة لأنه سيسلك طريقًا آخرًا.
نزلت من السيارة، وأنزلت أمتعها من الصندوق، وراحت تمشي باتجاه نقطة الدخول إلى لومبارديا مكان تمركز أحد نقاط التفتيش الخاصة بالجيش الإيطالي.
وعندما وصلت هناك، ذكرت للعناصر المتمركزة أنها من هذه المدينة وتطلب الإذن بالدخول إليها.
طلبوا منها إبراز بطاقتها ففعلت، هنا لم ينتبه العناصر أن المذكور هو مكان الولادة وليس مكان الإقامة وكان ذلك من حسن حظها..
دخلت إلى لومبارديا، ويا ليتها لم تدخل... كارثة إنسانية حلّت بالبشر هناك.

الفصل الثالث

شهقات مميته

تساقط البشرعلى الأرض فاق تساقط أوراق الشجر.
لا يوجد شيء على الطرقات إلا المصابون، وفرق الإنقاذ مدعومةً بالشرطة الإيطالية.
وأثناء وجود شخص ملقى على الطريق يصرخ بصوت خافت، اقتربت منه وقبل أن تلمسه، وإذ بشرطي يمسكها من كتفها، ويصرخ ويقول: تراجعي.
ارتسمت الصدمة على وجهها، فقد فاجأتها ردّة فعله بشكل لم تتوقّعه.
فتراجعت، وبدأ الشرطي يصرخ عليها ويقول: هل فقدتِ عقلك!
ألا تعلمين أن الفيروس قد ينتقل باللمس!
اعتذرت منه، وقدمت له نفسها على أنها ممرضة.
وقدم لها الشرطي نفسه حيث أخبرها أنه يدعى "ماركو" وهو مسؤول عن جهاز الشرطة في مقاطعة لومبارديا.
بعدما قدم لها نفسه، أعطاها معدات الوقاية الصحية من كفوف وكمامة طبية، طلب منها أن تقوم بتقديم الرعاية الصحية الأولية لحين وصول فرق الإنقاذ.
فقالت له ... هذا واجب إنساني.
وفعلت ذلك.
ما إن أنهت تقديم واجب الرعاية الصحية، حتى حضرت فرقة الإنقاذ، ونقلت المصاب إلى أحد مستشفيات لومبارديا.

ثم اعتذر منها وقال لها: إنني لم أرِدْ أن أصرخ بكِ، ولكن كان ذلك من أجل الحفاظ على صحتكِ.
قبلت "صامويلا" اعتذاره، ولكن طلبت منه أن ينقلها إلى بيرجامو مكان إقامة جدتها "فرنسيسكا".
وافق على طلبها، وقام هو بنفسه بوضع أمتعتها في صندوق سيارة الشرطة.
وأثناء حديثه معها خلال الطريق ذكرت له سبب مجيئها إلى بيرجامو، هنا قال لها بأن ما فعلته كان خاطئا بالكامل، وأنه لم يكن عليها أن تخاطر بنفسها، وتأتي إلى لومبارديا بهذه الطريقة.
بكت وقالت بأن جدتها هي من أشرفت على تربيتها عندما كانت صغيرة، وأنها كانت صاحبة فضل عليها..
طلب منها أن تهدأ وأكمل بالقول: ستكون بخير.
ذكرت له عنوان جدتها، فقام بإيصالها إلى باب منزل جدتها حيث نزلت هناك.
حملت أمتعتها، وتوجهت إلى بيت جدتها بعد أن شكرته..
طرقت الباب فلم يُفتح، ثم أعادت الطرق عدة مرات دون جدوى.
فانشغل بالها على جدتها، وجلست على عتبة الباب تبكي.
واصلت "صامويلا" بكاءها بحرقة، حتى سمع أحد الجيران صوت نحيبها أثناء مروره قرب المنزل.

هرعت إليه، والدموع تفيض من عينيها، وقلبها يسبقها بالسؤال:

أرجوك، هل تعرف شيئًا عن جدتي.

هز الشاب رأسه وهو يردد كلمة نعم أعرف.

لكن لا تقتربي، حفاظًا على قواعد التباعد الاجتماعي.

هرّت رأسها، وتراجعت خطوة إلى الوراء، لكنها أعادت السؤال بصوتٍ مرتجف:

هل تعرف أين هي؟ هل هي بخير؟

لقد نُقلت إلى مستشفى بيرغامو قبل أكثر من عشرة أيام.

شهقت ووضعت يدها على رأسها، ثم همست بحرقة:

"يا إلهي"أجابها أنها ليست ببعيدة، ويمكن الذهاب إليها سيرًا على الأقدام.

ذهبت باتجاه الطريق الذي أرشدها إليه الشاب.

هناك دخلت ورأت العجب ففي كل مكان هناك مصابون، مرضى نائمون أمام باب المستشفى، مرضى في الممرات وفي كل مكان.

دخلت إلى غرفة الاستعلامات فلم تجد أحدا.

انتظرت قليلًا حتى مر بجانبها فتاة ترتدي قميصًا أبيض، أوقفتها وسألتها عن جدتها فقالت الطبيبة بأنها لا تعلم عنها شيئًا، ويتوجب سؤال موظفة الاستعلامات.

في هذه الأثناء، كان قلبها يخفق بسرعةً جنونية، ولم يهدأ.
بعد الانتظار إلى ما يقارب ساعة، حضرت موظفة الاستعلامات.
فركضت إليها، وعند سؤالها وبعد بحث موظفة الاستعلامات في الحاسوب اتضح أن جدتها في أحد الغرف.
اطمأنت قليلًا، إذ إنها ما زالت على قيد الحياة.
وبعد الاستفسار عن إمكانية زيارتها أخبرتها موظفة الاستعلامات أن زيارتها ممنوعة، خوفًا من أن تقوم بنقل الفيروس.
ولكن بعد أن بكت ولاحظت موظفة الاستعلامات ذلك، أخبرتها أنها يمكنها إلقاء التحية عليها من النافذة المقابلة لغرفتها.
سُرّت بهذه الفكرة، وذهبت مع موظفة الاستعلامات إلى النافذة المقابلة لغرفة جدتها..
ألقت عليها نظرة من النافذة، وكانت جدتها تضع جهاز التنفس المساعد.
فأصبحت ترفع بيدها لعل جدتها تنتبه لوجودها، وبعد تكرار المحاولة لأكثر من مرة تنبهت جدتها لوجودها
فراحت تحرك يدها، مما أثار سرورها..
وبعد أن بقيت تنظر إلى جدتها قرابة خمس دقائق، طلبت منها موظفة الاستعلامات المغادرة لأن وقت الزيارة كان قد انتهى، لكن أخبرتها أنه يمكنها أن تأتي في اليوم التالي.

هنا سألت موظفة الاستعلامات إذا ما يمكنها أن تأخذ مفتاح بيت جدتها..

فقالت لها الموظفة: هذا ممكن إذا وافقت..

وبعد الاستئذان من "فرنسيسكا"، أحضرت موظفة الاستعلامات مفتاح منزلها من دائرة الأمانات الخاصة بالمرضى، وقدمته إليها.

فغادرت المستشفى، وكانت قد تحسنت حالتها النفسية قليلًا، وتوجهت إلى منزل "فرنسيسكا".

وما إن دخلت البيت، حتى رأت صورها وهي صغيرة في كل مكان معلقةً على كل حائط.

فراحت تحدق في كل صورة من الصور، فتذكرت أخاها الذي توفي بخطأ طبي منذ أن كانت طفلة،والدها ووالدتها الذين لقيا حتفهما..فوالدها قد رحل بجلطةٍ دماغية، في حين أن والدتها توفيت حسرةً على وفاة زوجها.

قصص مؤلمة عاشتها منذ الطفولة حتى كبرت.

فحتى اختيارها لمهنة التمريض كان سببه موت أخيها بخطأ طبي، كما أن رحيلها عن إيطاليا كان سببه رحيل والديها إلى تحت التراب.

انطلقت تنظر في كل صورة، تارةً تبتسم، وتارةً تشعر بغصة.

بقيت تنظر في هذه الصور حتى وقفت تتأمل إحداها بشكلٍ

غريب.

تبسمت وقالت: "فرنسيسكو".

فقد كان حبيبها السابق، وكانت قد تعرفت عليه في الجامعة وهي تدرس العلوم التمريضية، في حين كان يدرس هو في كلية الطب.

راحت تستذكر علاقتها بـه التي بدأت أثناء توقف "صامويلا" مع إحدى صديقاتها في حرم الجامعة، حينها أتى وألقى التحية على صديقتها..

كان "فرنسيسكو" وسيمًا، خلوقًا جدًا، صاحب شخصية قوية.

أعجب "فرنسيسكو" بـها من النظرة الأولى، لكنه لم يتحدث إليها.

عند عودته إلى المنزل، سأل صديقته عنها التي حدثته عنها بكل رقي، وراحت تلقي الشعر بها، بصدقها، بأمانتها بوفائها، وإنسانيتها.

طلب "فرنسيسكو" من صديقته ترتيب موعد معها، ولكن دون أن تعلم "صامويلا" بطلب مواعدته لها، ليبدو الأمر وكأنه صدفة.

تحمست صديقتها للفكرة، خصوصًا أن "صامويلا" كانت ما تزال إلى هذا الوقت دون حبيب.

فلم تكن "صامويلا" حتى هذا الحين تحظى بأية تجربة حب

سابقة.
ففكرت صديقتها بضرورة ترتيب هكذا أمر، خصوصًا أنها تعلم بكونها ذكية جدًا و قد تشعر بالخدعة.
فدعتها صديقتها لموعد على العشاء في أحد أفخر المطاعم الإيطالية، استغربت من هذه الدعوة، خصوصًا أنهما كانتا طالبتان، وقد لا تمتلكان ثمن هذا العشاء.
في البداية، رفضت لكن بعد إصرار صديقتها، وبعد أخذ رأي والدتها وافقت "صامويلا" على الدعوة.
ارتدت في ذلك اليوم فستانًا أحمر طويلًا ينساب برقيّ على جسدها، وقد انسدل شعرها برقة على كتفيها، يحيط بوجهها كموجة هادئة، وزيّنت ملامحها بمكياج خفيف أضفى على جمالها لمسة ناعمة ومتزنة.
كان "فرنسيسكو" يراقبها من بعيد، لكن كانت هي لا تراه.
بعد أن حضرت صديقتها، اختارت طاولة تطل على النهر.
وما هي إلا دقائق حتى رأت صديقتها ترفع يدها، وكأنها تقول لأحد نحن هنا.
هنا، ظهر أمامها "فرنسيسكو"، وألقى التحية على صديقته وعليها..
قدم نفسه، فلم تتعرف إليه في البداية، ولكن عندما حدثتها صديقتها أنه ذات الشخص الذي التقاهما في حرم الجامعة،

تذكرته..

فطلبت صديقتها منه ومن صديقه أن يجلسا معهما على نفس الطاولة.

فوافق على الطلب، إلا أن الطاولة كانت صغيرة لا تتسع إلا لشخصين.

طلب "فرنسيسكو" منهم تغيير الطاولة لكن "صامويلا"، رفضت لأنها أرادت الجلوس بالقرب من النهر.

هنا اقترحت صديقتها منه أن يحضر طاولة أخرى، ويوصلها بطاولتهم.

حاول أن يطلب ذلك من النادل، إلا أن النادل رفض.

وكانت حجة النادل أن هذا ليست من طقوس المحل، وإذا ما أرادوا فعليهم أن يجلسوا في مكان آخر يكون يتسع لأربعة أشخاص.

طلب منهما فرانسيسكو أن يبدلا مكانهما لكي يجلسوا جميعًا سويًا.

ولكنها رفضت ذلك، وقالت بأنها سعيدة بهذا المكان، خصوصًا أنه مُطل على النهر.

وأقترحت عليهم بأنهم يمكنكم الجلوس على طاولة وحدكم، ونحن على طاولة أخرى.

هنا فهم إنها تريد البقاء مع صديقتها فقط.

فاعتذر على إزعاجه لها، وغادر المكان برفقة صديقه.
تجادلت هي وصديقتها حول ما حصل، بحيث أخبرتها أنه لم يكن ينبغي عليها التصرف هكذا.
واكملت كلامها.. بأنها قبلت دعوتها بناءً على أنهم سيجلسان معا، ولم تخبرها بأن هناك أشخاصًا آخرين سوف يحضرون.
قالت صديقتها أنها لم تكن تعلم بمجيئهم.
ولكنها كذبتها ووصفتها بالأفعى.
في هذه الأثناء، كان قد حضر النادل، وسأل عما يريدون طلبه.
فطلبت "صامويلا": قطعًا من ستيك لحم البقر مع القليل من الخضروات، وكوبًا من النبيذ.
وطلبت صديقتها شيئًا مماثلًا.
عند الانتهاء، وأثناء طلب الفاتورة أدركت صديقتها أنها لم تكن تحمل النقود، لأن "فرنسيسكو" كان قد وعدها بأنه من سيدفع لهذا العشاء.
كما أن "صامويلا" أيضا لم تكن تحمل هكذا مبلغ، إذ إن هذا المطعم يعد الأغلى في الأنحاء.
وعند معرفة "صامويلا" بأن صديقتها لم تكن تحمل النقود، غضبت منها أكثر.
وبعد حضور النادل لأكثر من مرة دون استجابتهما، أبلغ النادل مدير المطعم أن الصديقتين لا تمتلكان النقود.

فأخبرها مدير المطعم بأنه سيقوم بإحضار الشرطة في حال لم يقوما بدفع المبلغ.

هنا، أصبحت "صامويلا" تبكي، وتترجى مدير المطعم، وأنها ستحضر النقود من والدها غدًا.

رفض مدير المطعم فكرتها، في حين كان لدى صديقتها رأيٌ آخر وهو أن يقوما بالعمل بقيمة المبلغ.

أعجب المدير بفكرة صديقتها فأعطاهم زيًا خاصًا بالمطعم.

وبعد تقديم التعليمات والإرشادات لهما، بدأوا بالعمل، فـ"صامويلا" أعهد إليها تقديم وجبات الطعام للزبائن، في حين أن صديقتها عملت على تحضير المشروبات تمهيدًا لتقديمها للزبائن.

فكانت "صامويلا" تتنقل من طاولة إلى أخرى، وبابتسامتها العريضة وحديثها الممتع مع الزبائن تمكنت "صامويلا" من جمع مبلغ كبير من الإكراميات.

عند انتهاء دوام العمل، قدمت "صامويلا" الإكراميات للمدير الذي تفاجأ بهذا المبلغ، وطلب منهت أن تقتسم هذا المبلغ بينها وبين صديقتها، كما أنه كان قد عرض عليها العمل معه.

فردت عليه بأنها ما زالت طالبة، لكن يمكن لها أن تعمل في الفترة المسائية.

وافق المدير على ذلك، وعادت "صامويلا" وصديقتها كل منهما

إلى منزله.

في اليوم التالي، أخبرت والديها بما حدث، فغمرتهما السعادة لأنهما كانا يعتقدان أنها تعاني من أزمةٍ نفسية، حرمتها متعة الاستقلال والاعتماد على نفسها.

ذهبت إلى الجامعة، والتقت بصديقتها هناك وتوجها إلى مكتب رئيس قسم التمريض الذي أراد أن يوزعهم على الأقسام، وذلك لإجراء التمرينات العملية.

فكانت المصادفة أن "فرنسيسكو" كان في نفس الفرقة التي سوف تتدرب فيها..

ما إن رآها "فرنسيسكو" حتى كان غاضبًا لما كان قد حدث منها في المطعم.

فأصبح ينظر لها نظرات غريبة، يراقب كل شيء تفعله.

تنبهت "صامويلا" لأفعاله، فتجاهلته حتى أخطأت في أحد الاختبارات، فذهب إليها "فرنسيسكو" وقام بإرشادها ومساعدتها.

فاعتذرت منه على ما كان قد حدث، فابتسم لها بسبب رقت كلامها فالبنت العنيده تحدثه بصوت هادئ..

أخبرته عما حصل، وأنها تعمل هناك مساءً منذ ذلك الوقت.

أعجب بكلامها فهي قد حولت موقف سئ مرت به إلى شيء مميز تقوم به، وأصبح يذهب كل يوم مساءً ينتظرها لتخرج من

المطعم قاصدةً البيت، ويتبعها دون أن تعلم بذلك.
وفي ليلة من الليالي، وهي عائدة إلى بيتها سيرًا على الأقدام، اعترضها رجلٌ مخمور، وحاول إيقافها.
وما إن حاول أن يمد يده ليعترض طريقها حتى ظهر "فرنسيسكو"، ودافع عنها، حتى هرب ذلك الرجل..
رغم مفاجاتها من وجوده، ولكنها سألته.. ماذا تفعل هنا في هذا الوقت، فأجاب بأنه كان يمر من هنا صدفةً.
فشكرته، وقام بإيصالها إلى منزلها.
في تلك الليلة، عجزت عن النوم، وبقيت مستيقظةً تتقلّب بين الهواجس، تفكّر فيه...
وتسأل نفسها.. هل كان ظهوره محض صدفة؟
أم أنه كان يراقبها ويتعقّب خطواتها بصمت.
في اليوم التالي، ذهبت كعادتها إلى الجامعة، والتقت بـه بشكل طبيعي.
ذهبت بعد إنتهاء اليوم الدراسي كعادتها إلى العمل في المطعم، وعند انتهائها خرجت ومشت نفس الطريق، وراحت تتلفت وراءها لترى إذا ما كان "فرنسيسكو" يتبعها.
فلم يظهر لها ذلك، وما إن قطعت الطريق أحست بأن هناك من يتبعها، فقررت أن تبطىء مشيتها لتتحرى عن ذلك.
تنبه "فرنسيسكو" لذلك، وتنبهت هي أن "فرنسيسكو" أبطأ

مشيته أيضًا.
فأسقطت نفسها أرضًا، فظهر المخلص "فرنسيسكو" كالعادة، فضحكت وقالت له بأنها الصدفة يا عزيزي.
تبسم، ومشى معها حتى وصلا إلى بيتها، ثم ذهب هو إلى منزله.
كان اليوم التالي هو اليوم الأخير قبل إجازة الأعياد المجيدة في شهر ديسمبر، فقرر مصارحتها بحبه.
دعاها لتناول الغداء معه في كافيتيريا الجامعة، فقبلت الدعوة.
وأثناء تناول الغداء صارحها بإعجابه بها وبحبه لها.
لم تستغرب حديثه لأنها أحست بذلك في الفترة السابقة..
لكنها بقيت صامتة، وقالت له سنرى ماذا سيحدث لاحقًا.
في ليلة هذا اليوم، انتظرها خارج باب المطعم، ومشى معها إلى منزلها، وقال لها في الطريق: لا أدري كيف ستمر هذه الإجازة.
تنهدت، وقالت له: ستمر كما يمر كل شيء.
ودعها على الباب، وطلبت منه ألا يتبعها ككل يوم، وإذا ما أراد يمكنه أن يمشي بجانبها وليس وراءها.
سُر "فرنسيسكو" بما سمع، وعاد إلى منزله، وأثناء وجوده في سريره متكئًا يفكر فيها، خطر بباله فكرة وعمد على تنفيذها في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي تجهزت "صامويلا"، وذهبت إلى عملها في المطعم، وما إن دخلت المطعم حتى رأته هناك.
تفاجأت بوجوده، وسألته ما الذي يفعله هنا.
فأجابها بأنه منذ هذا اليوم هو عامل في هذا المطعم حتى انتهاء عطلة الأعياد.
لم تصدق كلامه حتى رأت "فرنسيسكو" قد بدل ملابسه، ولبس الزي الخاص بالعمل.
بدءا يعملان سويًا، وكانت عيون "فرنسيسكو" لا تتحول عنها وهي تعمل.
لم تدرِ حينها إذا ما كان يجب عليها أن تُسر أو تحزن بقراره بالعمل معها.
وفي ليلة رأس السنة، احتفلت "صامويلا" معه بهذه المناسبة في المطعم.
في هذه الليلة، وعند انتهاء الحفل الذي كان مقامًا في المطعم، كانت الشمس قد أشرقت، ومع أنها كانت ترغب بالعودة، فإن فكرة السير وحدها في شوارعٍ يعجّ بعضها بالثُمل والخطر أخافتها، فلم تتردد في طلب مرافقته حتى باب منزلها.
لبّى طلبها، وسارا سويًا حتى وصلا.
وهناك، عند العتبة، نظرت إليه بعينين تحملان لأول مرة مشاعر له، ثم طلبت منه أن يقبّلها، ففعل، بهدوءٍ يشبه الوعد.

في تلك اللحظة، كان والدها واقفًا خلف النافذة، يراقب عودتها كعادته، فرأى المشهد بعينيه، لكنه لم يتفوّه بكلمة.
بل على العكس، ارتسمت على وجهه ابتسامة خفية، فهذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ابنته، وقد لامس قلبها الحب.
وبعد أن نامت "صامويلا" واستيقظت، سألها والدها إذا ما أرادت إخباره شيئًا، ضحكت وقالت: كأنكِ تعيش في داخلي يا والدي، تشعر بما تحدثني به نفسي، وما ينطق به قلبي.
أخبرته عن قصتها مع "فرنسيسكو"، سُر والدها وقال لها: هذا اختيارك في النهاية.
استمرت علاقتهما بشكل جيد، فأحبته كثيرًا، وكان هو يرى "صامويلا" بأنها الحياة بأكملها.
بعد فترة قصيرة، أخطأت صديقتها في الحديث وقالت: مطعم "فرنسيسكو".
سألتها "فرنسيسكو" حبيبي يملك مطعمًا..
قالت لها صديقتها بأن المطعم الذي تعملين به هو ملك لوالد "فرنسيسكو" المليونير الشهير.
صمتت "صامويلا"، وراحت تتذكر كل شيء قد حصل منذ أن دعتها صديقتها حتى اليوم السابق لهذا الاعتراف.
نظرت لصديقتها وقالت لها: لمَ كل هذا؟
لمَ كذبتما عليّ؟

في هذه الأثناء، كان قد ظهر "فرنسيسكو"، وما إن ظهر حتى غادرت المكان وهو يركض وراءها ويسألها عن حالها ولما تتصرف بتلك الطريقة، لم تجب وحتى لم تنظر إليه، بقي يتبعها حتى وصلت إلى باب منزلها فدخلت ودخل وراءها، ألقى التحية على والدها وجلس معه، أما هي فقد دخلت إلى غرفتها.
سأله والد "صامويلا": ما الذي حصل؟ فأجابه بأنه لا يعلم.
ولكن وبنفس اللحظة خرجت "صامويلا" وطلبت من مغادرة منزلها فورًا.
لم يصدق والدها ما سمعه، هنا أيقن والدها أن هناك شيئًا كبيرًا قد حدث.
وعند مغادرة "فرنسيسكو" سألها والدها عن سبب طلبها منه المغادرة خاصة أنها المرة الأولى التي تتصرف فيها هكذا مع الضيوف.
فالمعروف عنها أنها خلوقة جدًا، كما أنها مضيافة.
أخبرت والدها بكل ما حدث، وعن تآمره مع صديقتها عليها، واللعب بأعصابها، لحظة عدم قدرتها وصديقتها على دفع ثمن العشاء، وعن خوفها آنذاك من إحضار الشرطة، وأنها كانت تعمل طوال تلك الليلة وهي خائفة.
سألها والدها: وهل تحدثتي معه يا ابنتي وسألتيه عن السبب؟
أجابته بأنه لا يوجد سبب يدعه يفعل ذلك.

فقال لها والدها أن من خلال خبرتي في الحياة سأقول لك بأن هذا الشاب يحبكِ كثيرًا، وهذا ما دفعه لفعل ذلك، خصوصًا أنكِ عملت في ذلك المطعم منذ ذلك اليوم، وهو كان يعلم ذلك، وكان يتبعكِ كل ليلة من خوفه عليكِ.

في اليوم التالي، في الصباح الباكر أرادت أن تخرج من المنزل، وإذا بـه يجلس على عتبة درج بيتها حاملًا باقةً من الزهور.

فسألته: ماذا تفعل هنا؟ سوف أتصل بالشرطة لأنك تجلس على عتبة ديارنا.

أجابها بخوف بأنه يريد فقط أن يتحدث معها.

وقال لها بأنه كان قد تحدث بالأمس مع صديقتها، وعلم منها كل شيء قد أغضبها، ثم أضاف أنه كان سيخبرها بذلك، لكنه خاف من ردة فعلها، وأنه فعل كل ذلك لأنه يحبها.

قالت له.. إنك كاذب ولا يمكنني الوثوق بكَ بعد الآن.

طلب منها أن تسامحه، وأنه يعرف أنه أخطأ، ولكن كل ذلك كان لأنه يحبها، وكان عنده استعداد أن يفعل أكثر من ذلك من أجل الحصول على حبها.

في هذه الأثناء، نظرت إلى الأعلى، فوجدت والدها يطل من النافذة، فهز لها برأسه أي: سامحيه، فسامحته

وقدم لها "فرنسيسكو" باقة الورود، وقبلتها منه..

واستمرت قصة حبهما فترةً طويلة وعرفت أن والده يعتبر من

أغنى رجال الأعمال في إيطاليا لكنها لم تسأله من يكون.
وعند تخرجهما، قرر "فرنسيسكو" أن يرتبط بـها رسميًا، وكان قد تحدث إلى أبيه في هذا الموضوع، فوافق الأب دون أن يرى "صامويلا".
وقد تم تحديد موعد للقاء العائلة للتعارف، وفي ذلك اليوم التقى والد "صامويلا" بوالد "فرنسيسكو"، وما إن قدم "فرنسيسكو" والده لوالدها حتى أخذ والد "صامويلا" ابنته بيده، وانسحب برفقة زوجته...
ركض "فرنسيسكو" خلفهم، وسأله ما الذي دفعه للمغادرة حين رأى والده، وإذا ما كان يعرفه في السابق.
قال والدها.. اذهب يا بني واسأل والدك، وأرجو أن تدع ابنتي وكأنك لم تعرفها من قبل.
غادر الأب ومعه ابنته وأمها، وفي الطريق سألته عن السبب الذي جعله يطلب منها ومن أمها المغادرة خصوصًا أنه كان يتمنى هذه اللحظة بفارغ الصبر وكان مسرورًا جدًا بارتباطها بـ "فرنسيسكو".
فردت أمها وقالت: أليس هذا "خوسيه" رجل المافيا الذي زور المستندات من أجل أن تُطرد من الخدمة.
كان والدها شرطيًا يعمل في جهاز مكافحة المخدرات، وكان والد "فرنسيسكو" تاجرًا للمخدرات، وزعيم أحد المافيات

الإيطالية.
أما والدها فكان رجلًا نزيهًا، وكان قد ضبط شحنة مخدرات تعود إلى "خوسيه"..
حاول زعيم المافيا رشوة والدها لكنه لم يفلح.
فلجأ إلى مسؤوله المباشر الذي تآمر معه، وتمكن من تحرير شحنة المخدرات.
وبسبب تصرف والدها بمنتهي النزاهة، وخشية من أن يعرقل والدها مصالح زعيم المافيا الحقيقة، قام الأخير بدس مبلغ من النقود في منزل والدها للإيقاع به..
وأتهم والدها بأخذ رشوة منه، وبعد إنكاره، قامت الشرطة بتفتيش منزله فوجدت النقود، وتم إنهاء خدمته في الشرطة.
تفهمت "صامويلا" موقف والدها، وحضنته وقالت: لا عليك يا والدي، فأنا أعرفك جيدًا، وأنا فخورة بكونك أبًا لي.
وما إن وصلا إلى المنزل حتى تذكر والدها هذه القصة المؤلمة، فأصيب بجلطة دماغية، فأودت بحياته.
وبعد مرور ما يقارب شهرًا، لحقته زوجته حزنًا عليه.
وبعد وفاة والدتها، شعرت بأن الحياة في هذه البلاد لم تعد تطاق، وأن البقاء فيها لن يجلب لها سوى الألم والمعاناة، لم يعد هناك ما يربطها بإيطاليا سوى ذكريات موجعة، فقررت أن تطوي تلك الصفحة من حياتها، وتبدأ من جديد في مكان آخر،

حملت ما تبقى من أملها وغادرت إلى ألمانيا، باحثة عن حياة أكثر هدوءًا وأمانًا، لعلها تجد فيها بداية تليق بما عانته.
بعد أن انتهت "صامويلا" من التحديق في الصور، قامت بترتيب أغراضها، وفي هذه الأثناء اتصل "ماريو".

وبعد التحيات، أخبرته "صامويلا" أن الجدة "فرنسيسكا" ترقد في المستشفى، وأنها سوف تبقى معها.
طلب منها أن تعتني بنفسها وأن تتذكر دائماً أن أحدهم يعشقها وهو في انتظار عودتها إليه..
أغمضت عيناها وخلدت النوم من التعب، نامت كإنسان لم يذق طعم النوم منذ سنين.
في الصباح التالي، ذهبت في موعد الزيارات المحدد إلى المستشفى، وقابلت موظفة الاستعلامات، وقامت بإعطائها باقة الورود لتضعها في غرفة جدتها، إذ إنه كان من الممنوع على أحد أن يدخل الغرف التي يقيم فيها المصابون بهذا الفيروس، ومن بينهم جدتها..
وبعد أن قامت بتسليمها الورود، توجهت إلى النافذة، وراحت تشير إليها بيدها حتى تنبهت الجدة لوجودها، فراحت تبتسم، وكأنها ستطير من الفرح.
وقبل مغادرتها المكان راحت تغني لجدتها أغنية بيلا شاو وهي

الأغنية التي كتبت للمقاومة الإيطالية أي: وداعًا يا حبيبتي الحلوة.

كانت كل يوم تذهب إلى جدتها في وقت الزيارات، وتجلس بقية النهار تستذكر طفولتها وحياتها في إيطاليا، وتحدث "ماريو" مساءً الذي لم ينقطع عن كتابة الأشعار فيها.

كان مدينة الجدة "فرنسيسكا" صامتة في معظم الأحيان، فالناس موجودة جميعها في الحجر المنزلي، فتجلس في الغرفة تارةً وتخرج إلى الشرفة تارةً أخرى.

وفي أحد الأيام، وهي جالسة على الشرفة رأت الشرطي "ماركو" يلقي عليها التحية من الشرفة الذي حضر برفقة فرقة كاملة من الشرطة، وبدأوا بعزف بعض الأغاني لأهل المدينة الذين كانوا يرتعبون من بقائهم في المنزل طوال اليوم، والذين خرجوا جميعهم إلى الشرفات للاستمتاع بعزفهم والتصفيق لهم.

وعند الانتهاء من العزف، وبعد أن صفقت لهم "صامويلا"، طلب منها "ماركو" أن تنزل فقام بالاطمئنان عليها، وحاول أن يساعدها في تلبية طلباتها.

فشكرته وطلبت منه بعض الكتب، فأحضر لها كل ما رغبت به.

مساءً، قامت بمحادثة "ماريو" وأخبرته عن حالة الخوف والهلع الذي يعيشها المواطنون الطليان، وعن محاولات الشرطة

الإيطالية طمأنة الناس، وعن قيام الشرطة الإيطالية بالعزف للمواطنين لطمأنتهم أنهم سيكونون بخير.

في هذه الفترة، كان قد بدأ المرض ينتشر في برلين بسرعة مثيرة للقلق، وظهرت أولى الحالات التي يمكن دراستها لدى كل من "ماريو" والبروفيسور، ما أتاح لهما فرصة إجراء الفحوصات الأولية في محاولة لفهم طبيعة هذا الوباء الغامض.

كان السؤال المطروح: هل هو فيروس جديد مجهول المصدر، أم كما يشاع، نتيجة تسرب غاز سام من أحد المعامل السرية، لا يمكن السيطرة عليه؟

رغم الجهود المكثفة لم تتضح الصورة، وأكتفى المعهد بنشر الأعراض التي قد تصيب المصاب من ارتفاع درجات حرارة، ضيق التنفس والسعال.

عمل "ماريو" ومن معه يعملون كالمجانين محاولين اكتشاف أمر هذا المرض.

وبقيت "صامويلا" تذهب كل يوم إلى المستشفى لزيارة جدتها التي كانت ما تزال تستخدم الجهاز التنفسي لكي يساعدها في عملية التنفس، خصوصًا أنه من نتائج الإصابة بهذا المرض هو عدم عمل الرئتين بشكل طبيعي فيسبب ذلك قصور في عملية التنفس الذي قد يؤدي إلى وفاة المريض.

ومع تدهور الوضع الصحي في مقاطعة لومبارديا وازدياد عدد

المرضى المصابين، سمعت "صامويلا" بعض الأخبار غير المؤكدة أن بعض المستشفيات تقوم بنزع أجهزة التنفس عن المرضى كبار السن وتعطيهم للشباب المصابين.

فقلقت من هذه الأخبار، وبدأت كل يوم تذهب منذ الصباح إلى المستشفى حتى خارج وقت الزيارات الرسمية، فتقفز عن الحائط وتتسلل لترى حالة جدتها الصحية، وما إذا كان الجهاز التنفسي ما زال معلقًا لها.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت تحاول التسلل عبر القفز عن الجدار، لمحها "ماركو" من بعيد. اقترب منها بسرعة وقد ارتسمت على وجهه ملامح الدهشة، وسألها بنبرة تجمع بين الاستغراب والقلق..

ماذا تفعلين؟ هل فقدتِ صوابك؟

فأخبرته عن هواجسها بكل صدق، فضحك "ماركو" وقال: وهل تعتقدين أن هذا ممكن أن يحدث في إيطاليا؟

إنها حملات إعلامية.

وتابع وقال لها: الظاهر أن حياتكِ في ألمانيا قد أنستك الشعب الإيطالي، وشهامته، وتضحياته، وإنسانيته.

شعرت بالاطمئنان قليلًا لما سمعته منه وقام بعد ذلك بتوصيلها إلى مكان إقامتها بسيارة الشرطة.

وفي الجانب الأخرى ورغم تعبه، ولكنها حبيبته لذا لم يتوقف تفكيره عن تخيلها والحديث معها في غيبتها، وكأنها حاضرة جسديًا أمامه، فيقول:

ما الذي تغير؟

ها أنا كما كنت، أجلس بالساعات أحدّق في هاتفي،

أنتظر مرورك ولو كان عابرًا...

أنتظر رسالة، حتى لو كانت حرفًا يتيمًا منِك.

ما الذي تغير؟

هاتفي لا يُغادر كفّي، وقلبي لا يتوقف عن الارتجاف كلما اهتزّ، لكن الأمل يخيب في كل مرة،

فرسائل العالم كلها لا تساوي حرفًا واحدًا منكِ.

يخيب أملي مع كل نظرةٍ إلى هاتفي، وتنهال عليّ موجات من حزنٍ واكتئاب على غيابِ لا يُعوّض... على عزيز لا يُنسى.

غصةٌ في قلبي.. غصةٌ اختلط فيها الحنين بشيءٍ من عبق الجنة، ولا يشبع هذا الاشتياق إلا بلقياكِ، ولا يخفّف وطأته إلا سماع صوتكِ أو حرفٌ تكتبينه لي.

في هذه اللحظة، يهتز هاتفه، ولكن هذه المرة لا يخيب أمله، فكانت المتصلة حبيبته الجميلة..

وما إن ردّت عليه وسمع صوتها، حتى شعر وكأن الدم عاد يجري في عروقه بقوة غير معتادة، فقد كان لصوتها وقعٌ خاص أشبه

بشحنة كهربائية تسري في جسده، فتدفع القلب إلى الخفقان بأقصى طاقاته، وكأن الحياة دبت فيه من جديد..
تغزّل بها بكلمات دافئة خرجت من أعماقه، ثم سألها عن حالها وحال جدتها، محاولًا أن يطمئن عليها ولو بكلمة. قال لها بصوت يفيض شوقًا: الحياة بدونك سراب، لا طعم لها، لا رائحة، ولا لون... مجرد أيام تمضي لا تُحتسب من عمر الإنسان، وكأن الزمن يتوقف في غيابك.
حدثته "صامويلا" عن مخاوفها، وعما تتناقله وكالات الإعلام من أن أجهزة التنفس لا تكفي لجميع المرضى. من أجل ذلك، قد يتم نزع الأجهزة التنفسية من مَن هم في سنٍ متقدم، وإعطائهم لمن هم في سن الشباب.
استبعد "ماريو" هذا الأمر، وقال لـها بأن إيطاليا تمتلك نظامًا صحيًا جيدًا، وأن هذا لا يمكن أن يحصل.
سُرت بما سمعته، ولكن كان لديها إحساس أن هناك شيئًا ما سوف يحدث.
أنهت مكالمتها معه، وقررت أن تقوم بتوضيب بيت جدتها.
وأثناء توضيب البيت وجدت الناي، ناي جدتها التي كانت قد علمتها العزف عليه، فأخذت الناي وخرجت إلى الشرفة، وبدأت تعزف الناي، فعزفت أغنية بيلا تشاو.
لم تكن حينها تنتبه لحضور الجيران في شرفاتهم حتى أنهت

عزفها، وما إن انتهت حتى صفق لها الجميع الذين قد خرجوا إلى شرفاتهم عندما سمعوا صوت الناي ظنًا منهم أن الجدة "فرنسيسكا" قد خرجت من المستشفى، إذ إنها كانت قد عودتهم أنها تخرج إلى الشرفة بين الحين والآخر وتقوم بالعزف لجميع سكان الحي.

وتساءل السكان من تكون؟

فأخبرتهم إحدى صديقات الجدة التي كانت تجاورها في السكن حين ذلك، بأنها مما لا شك "صامويلا" ابنة ابنتها.

ثم بدأ الجيران بسؤالهم عن جدتها، فطمأنتهم بأنها بخير غير أن زيارتها غير ممكنة، نظرًا لعزلها في الغرفة، وخوفًا من نقل العدوى.

مساءً، وأثناء جلوسها تبحث في الإنترنت عن آخر التطورات فيما قد توصل إليه العلماء حول هذا المرض، قرأت بعض الأقاويل التي تتحدث عن أن الدول تخوض حربًا ضد كبار السن المتقاعدين، وتريد التخلص منهم نظرًا للمصاريف التي تنفقها الدول على هؤلاء.

هنا، عادت حالة الهلع والخوف على جدتها، وخشيت من أن يتم نزع الجهاز التنفسي عنها، وإعطائه لأحد الشباب المصابين خصوصًا في ظل ارتفاع أعداد المصابين بين الشباب.

وخرجت من المنزل ليلًا رغم أن ذلك ممنوع بسبب حالة الحظر،

وقفزت من فوق الجدار وألقت نظرة على جدتها من النافذة ثم عادت.

أحس الشرطي "ماركو" وهو يقوم بدورية مسائية بذلك، لكنه لم لم يوقفها.

في اليوم التالي، وأثناء قيامها بزيارة جدتها أوقفها "ماركو"، وسألها بصوت هادئ يحمل في طياته شيئًا من الحزم:

هل اطمأننتِ على جدتكِ؟ أعلم قلق جيداً، ولكن أخبرتك من قبل، أن في إيطاليا لا يُنزع الجهاز التنفسي عن أي مريض طالما أنه على قيد الحياة، مهما بلغ عمره، تذكرى كلامي هذا دائماً..

ابتسمت رغم القلق الذي يسكن عينيها وردّت عليه قائله..

كلامك يُشعرني بالطمأنينة، شكرًا لك.

وقبل أن يغادر، التفت إليها بنظرة جدية، ولكنها دافئة، وقال:

لا داعي لأن تخرجي مساءً وحدك، وتأتي إلى المستشفى بهذه الطريقة... وإذا رأيتكِ المرة القادمة تتسللين من منزلكِ، سأضطر لاعتقالك.

عندها، فهمت أنه قد رآها بالأمس أيضًا، لكنه لم يمنعها، كأنما أدرك أن ما تفعله نابع من حب وخوف لا يُلام عليهما.

لقد أسدى لها خدمة من دون أن يطلب شكرًا.

نظرت إليه بعينين ممتنّتين وقالت بصوت خافت:
شكرًا لك، وأتمنى أن تُقدّر ما أمرّ به، فالإعلام، ووسائل التواصل، لا يكفون عن بثّ الأخبار المقلقة، ويزرعون الرعب في كل بيت. نحن لا نعرف ما الذي سيأتي به الغد.
طلب منها أن تتحقق من هذه الأخبار، وأن تأخذ أخبارها فقط من الوكالات الإيطالية الرسمية حصرًا.
فوسائل التواصل الاجتماعي ما هي الا منابر أعطيت للناس لتوثيق تفاهاتهم، فيتحدث فيها الحمقى ويحظون بمتابعة الملايين، لذلك أن تلفيق الأخبار قد يكون شيئًا سهلًا لهم.
هذه الوسائل، فبدل أن تكون شيئًا جميلًا ليتواصل الناس من خلالها، أصبحت شيئًا تافهًا ومنابر للتحريض، والبغضاء، ونشر الأكاذيب، والترويج للكراهية، والتعصب، والتكفير.
ثم أضاف.. سأقول لك بصراحة يا عزيزتي، بأنني حتى الآن غير مقتنع بوجود فايروس أصلًا، وأني أعتقد أن هناك حربًا بيولوجية قائمة بين الأمم، ولم يتم التصريح عنها من قِبل قادات الدول.
لقد سمعت أن هناك أناسًا يتحدثون عن غاز السارين الذي تسرب من أحد المختبرات، ولم يتمكنوا من السيطرة عليه، لذلك فالموضوع قد يستغرق عدة أشهر حتى يبطل مفعوله، لذلك قد حددت الدول تاريخ نهاية نيسان بأنه تاريخ انتهاء

الأزمة.

إلا أنني يا "ماركو" ممرضة، ولو افترضنا أنه غاز فإن الإصابات كانت ستتعدى الملايين، فضلًا عن أن من يصاب يصاب هو ولن يقوم بنقل العدوى للآخر، فالإصابة الناتجة عن غاز لا يمكن أن تكون معدية.

ثم إن الحديث عن حربٍ بيولوجية قد يكون من الناحية النظرية ممكنًا، إلا أنه من الناحية العملية غير واقعي، فمن ذا الذي سوف يخاطر ويقوم بهذه الحرب، وكيف يمكن لأجهزةٍ استخباراتية أن تسكت ومواطنيها تموت بالآلاف، واقتصادها ينهار شيئًا فشيئًا. بعد كل ذلك وكوني ممرضة أرى أنه ليس سوى فيروس.

ثم أكملت: هذا الفيروس موجود، وسيكتشف عاجلًا أم آجلًا، لكن السؤال: ما هو الثمن؟

وكم من الضحايا ستدفع البشرية؟

أُعجب بثقافتها وفلسفتها وقال لها:

صرنا نعيش في المجهول وسط وَضح النهار.

نخاف الغد...

نخاف من كل شيء، ومن لا شيء في آن واحد.

نخشى السير في الشوارع، نخاف التنفس وكأن الهواء صار عدونا.

نخاف لمس الأشياء، ونخاف أن يلمسنا أحد.
نرتعب من سماع أعداد الموتى،
نخشى أن نحملهم على أكتافنا وهم أموات،
بل نخاف حتى من حضور جنازتهم...
وكأن الحياة أصبحت مرادفًا لشيء واحد وهو الخوف من كل إتجاه...
ثم قال لها: لكن يا "صامويلا"، رغم قساوة المشهد الذي سببها هذا المرض من مصابين، وأعداد وفيات كبيرة إلا أنه فيه من الحسنات التي لم نكن لنراها لولا هذا الوباء.
ففيه تجلت المساواة الحقيقية؛ فقد ضرب الغني والفقير، الصغير والكبير، الأبيض والأسود والأصفر، الرجل والمرأة، والقوي والضعيف، دون تفرقة أو إستثناء.
وفيه يظهر وجه من أوجه العدل الإلهي، فلعل من حكمة اللّه ألا يكون له علاج حتى الآن، لأن لو وجد لكان باهظ الثمن، لا يقدر الفقيرعلى شرائه فيموت به، بينما الغني يقوى على ذلك فيشفى منه دون غيره.
وفيه عادت مشاعرالتضامن بين البشر، فقلوب الناس عادت تنبض بالرحمة والشفقة والخوف على بعضهم البعض، فتشجيع الجيران للمتعافين من هذا المرض والذي تمثل بالتصفيق لهم يعد أكبر دليل على التكاتف الإنساني فيما

بينهم، ففي كل مرة يخرج فيها مصابٌ نرى كيف يقوم جيرانه بالتصفيق له، وتحفيزه، وتشجيعه.
وفيه أيضًا استراحة...استراحة للبيئة من التلوث الذي سببه أنانية الإنسان، فقد تنفست الأرض قليلاً من أنانيته المتواصلة.
غادرو كُلًّا منهما إلى مقصده، هو لمتابعة عمله، وهي إلى منزل جدتها.
اتصلت بـحبيبها واطمأنت عليه، ثم سألته إذا ما كان هناك أخبارٌ جديدة حول ماهية هذا المرض ونوعه.
فقال لها.. بأننا نعمل طوال النهار والليل، ولم نصل إلى تحديد نوعية هذا المرض.
فسألها عن حالة جدتها، وكيف اصبحت حالتها ؟
فأخبرته أن الأطباء يذكرون أن حالتها مستقرة حتى اللحظة، ولكن لا أحد يدري ما سيكون في الأيام المقبلة.
لكنه أخبرها أنه كان قد قرأ أن هناك إصابات عديدة قد حصلت في صفوف الشباب في الأيام الفائتة، خصوصًا في الفئة العمرية بين الأربعين والستين.
قلقت إزاء هذه الأخبار، وقررت أن تخرج لتسهر مع الجيران في الشرفات، وغنوا ورقصوا، وكانت سهرة ممتعة لم تحظ بها منذ أن غادرت إيطاليا.

وبعد هذه السهرة في الشرفة مع الجيران، كلٌ من شرفته نامت واستيقظت في اليوم التالي، وقررت الذهاب في موعد الزيارات المحدد للاطمئنان على صحة جدتها.

وما إن دخلت المستشفى، حتى ذهبت مباشرة إلى النافذة التي تُطل على غرفة جدتها "فرنسيسكا".

نظرت هنا وهناك، فلم تجدها، بل وجدت شخصًا آخر شابًا في عمر الأربعين.

أصابها هاجس نزع الجهاز التنفسي عن جدتها، وتقديمه إلى هذا الشاب، وهذا ما يعني وفاة جدتها نظرًا لأنها متقدمة في العمر، وقد لا تعمل رئتيها بالشكل المطلوب.

ركضت إلى غرفة الاستعلامات، فلم تجد صديقتها التي ساعدتها أول مرة، فسألت عن مكان جدتها، فأخبرتها الموظفة بأنه تم نقلها إلى غرفة أخرى، ولا يمكن في الوقت الحالي زيارتها.

فسألتها عن إمكانية رؤيتها من النافذة، فقالت لها الموظفة بأن الجدة ليست في الطوابق الأرضية، لذلك لا يمكن رؤيتها من النافذة.

وبعد تكرار المحاولة ومجيئها كل يوم إلى المستشفى لزيارة جدتها والاطمئنان عليها، ورفض الموظفون السماح لها بالدخول لكونه ممنوع قانونيًا بحكم احتمالية نقل الفيروس

وما قد يحمله من خطر على حياة الزائر، قررت "صامويلا" أن تأتي إلى المستشفى ليلًا وتتسلل وتتسلق الجدران.
وبالفعل مساءً، قامت بتحضير نفسها، وأحضرت معها حبلًا لتقوم بالتسلق إلى الطابق العلوي في المستشفى.
كانت ليلة صامتة، طرق كأنها مهجورة، ولا يسمع فيها إلا صوت بعض الحيوانات البرية المخيفة، ويخرق هذا الصوت في بعض الأحيان صوت سيارات الإنقاذ مصحوبةً بسيارات الشرطة، وكانت في كل مرةً تسمع فيها صوت سيارات الإسعاف تقوم بالاختباء وراء الشجر تارةً وبين الحشيش تارة أخرى، واستمرت على هذا المنوال حتى وصلت إلى باحة المستشفى التي كانت فارغة من الناس خصوصًا أن الوقت كان متأخرًا.
ذهبت إلى الباحة الخلفية من المستشفى، وبدأت تتسلق لتصل إلى الطابق العلوي.
بعد عدة محاولات فاشلة، تمكنت من الوصول إلى الطابق العلوي، وبدأت تبحث في كل غرفةٍ من الغرف عن جدتها التي لم تجد لها أثرا، ولكنها تذكرت كلام "ماريو" وبعض الأخبار التي قرأتها من قبل أنه في بعض الأحيان يتم نزع الأجهزة التنفسية عن بعض المرضي كبار السن، ويتم نقل هذه الأجهزة إلى غرف أخرى لإعطاها مرضى آخرين أصغر سنًا.
أصابت بصدمةً من جراء ذلك، وبعض بحثها المتكرر عن

جدتها لم تجدها، فقررت العودة إلى المنزل، لتفكر فيما يمكنها فعله..

وفي طريقها التقت بـ "ماركو" الذي سألها أين كانت، فحدثته عما كان قد حدث في المستشفى إلا أنه لم يصدقها وقال لها: إن دخولها بهذه الطريقة يعد غير مشروع، وحتى لو كان هذا الكلام صحيحًا، فإنه لا يمكن الأخذ بشهادتها، وعليها أن تعود إلى منزلها في الحال.

وبعد أن حاولت إقناعه بأنه يجب عليه التدخل لم يُلبِّ رغبتها، قامت بالعودة إلى المنزل.

في هذه الليلة، لم تنم، ولكن اتصلت بـ "ماريو"، وأخبرته بما رأته بعينها، حينئذٍ طلب منها أن تقوم في الصباح بتقديم شكوى رسمية للشرطة بذلك، وفي تلك الليلة كانت مهمته صعبه في أن يجعلها تهدأ وتنام، وبالفعل ظل يتحدث معها حتى خلدت للنوم دون أن تشعر..

في الصباح الباكر، ذهبت إلى قسم الشرطة فوجدت "ماركو" هناك وطلبت منه أن يفتح لها محضرًا بما رأته، فرفض، ولكنه قال لها بأنه سيساعدها، ولكن عليها أن ترفع دعوى مستندةً إلى اختفاء جدتها، وليس استنادًا إلى ما رأته بعينها المجردة في المستشفى.

فرفعت الدعوى، وكان سندها القانوني اختفاء الجدة.. فذهبت

فرقة من المحققين إلى المستشفى برفقتها..
وبعد سلسلة من التحقيقات والاستفسارات القلقة، أخبرهم الطاقم الطبي بوجه شاحب ونبرة حزينة أن الجدة "فرنسيسكا" قد فارقت الحياة منذ ثلاثة أيام.
كانت كلماتهم كصفعة على صدر "صامويلا"، صادمة، موجعة، وكأن الزمن توقف في تلك اللحظة، وتجمّدت أنفاسها بين التصديق والإنكار.
فقامت بتكذيب الطاقم الطبي، ثم أخبرتهم أن موظفة الاستعلامات أخبرتها أن الجدة "فرنسيسكا" قد تم نقلها إلى غرفة في الطابق العلوي من المستشفى.
فقامت فرقة المحققين بالبحث عن السيدة "فرنسيسكا" في الطابق العلوي من المستشفى فلم تجد لها أثرًا، حينئذ أخبرهم الطبيب المسؤول عن حالتها انها تم وضعها في المشرحة تمهيدًا لدفنها في المقبرة الجماعية مع باقي الضحايا الذين توفوا بهذا الفيروس.
بعد سماعها لهذا الكلام من قبل الطبيب المسؤول، سيطر عليها حالة من الحزن والاكتئاب الشديد نتيجة وفاة جدتها.
فطلبت من فرقة المحققين ومن الطبيب المسؤول أن يسمحوا لها بوداعها.
بعد توصية من قبل "ماركو"، ونظرًا للانهيار التي تعرضت له

"صامويلا"، وافق الطبيب المسؤول على أن تقوم "صامويلا" بإلقاء نظرة أخيرة على جدتها..

فقام الطبيب المسؤول بإعطائها الملابس الطبية اللازمة لحمايتها من انتقال العدوى إليها، وسمح لها بالدخول إلى المشرحة.

اقتربت من سرير جدتها وقد غطّى الحزن ملامحها كغيمة سوداء، واقتربت منها وألقت نظرة الوداع على وجهها الباهت الساكن، انهمرت دموعها بغزارة، تشهق بين لحظة وأخرى، وتردد بانكسار:

إن هذه الحياة خالية من الإنسانية، لا عدل فيها، ولا رحمة.

سمعها الطبيب المسؤول، فاقترب منها وسأل بنبرة مترددة:

لماذا تكرّرين هذه العبارة؟ ماذا تقصدين؟

سكتت للحظة، تحاول السيطرة على اضطرابها، ثم تمتمت بانفعال مكبوت:

أنتم من قتلتم جدتي، نزعتم عنها جهاز التنفس وأعطيتوه لمن هو أصغر منها، كأن العمر صار معيارًا للبقاء، وكأن أرواح الكبار لا تستحق الحياة.

لم يرد الطبيب على كلماتها، فقد رأى فيها حديثًا نابعًا من صدمةٍ لا منطق فيها، واكتفى بالنظر إليها بصمت، مدركًا أن هذا الألم لا يقابل بالحجج الطبية أو التبريرات.

غادرت "صامويلا" المستشفى مثقلة بالحزن، تسير وكأنها تحمل الجدة فوق كتفيها. عرض عليها "ماركو" أن يُوصلها إلى منزلها، محاولًا التخفيف عنها ولو بالقليل، لكنها رفضت بلطف، وقد احمرّت عيناها من البكاء، وهمست:

أحتاج أن أمشي وحدي...أحتاج أن أودّعها بطريقتي.

غادرت المستشفى سيرًا على الأقدام وهي في حالة من الجنون، تمشي بضعة أمتار وتتوقف تنظر إلى السماء، ثم تتابع.

استمرت على هذه الحالة إلى أن وصلت المنزل.

لم تفعل شيئًا يذكر في هذا اليوم سوى أنها اتصلت بـ "ماريو"، وأخبرته عما حدث.

صدم بما سمع منها، ولكنه حاول تهدئتها.

في اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى، فرأت عددًا كبيرًا من عربات الجيش التي كانت تستعد لنقل الموتى من المستشفى إلى المقابر الجماعية ليتم دفنها هناك.

وبعد أن تم تحميل العربات بجثث الموتى سارت العربات وتبعتها حتى وصلوا إلى المكان الذي أعد سلفًا لدفن الموتى.

وما إن تم وضع الجثث وحرقها حتى انهارت دموعها حزنًا على

جدتها.

بقيت في المكان حتى بعد مغادرة الشاحنات وعناصر الجيش المكلفة بالمهمة.

ثم أتى "ماركو"، وطلب منها أن يقوم بتوصيلها إلى منزلها.

مرت أيام عليها كأنها جحيم، لا تفعل شيئًا سوى التحديق في صور جدتها المتوفية.

كانت تتذكر أيام طفولتها، وحنان جدتها عليها كلما حضرت لتراها.

وفي ليلة من الليالي، وأثناء نومها حضرت جدتها في منامها، وبدأت تتحدث إليها وتقول لها أنا بخير، فأنا قد أخذت نصيبي من هذه الحياة، ولكن هناك من يحتاج هذه الحياة ليكمل طريقًا قد بدأه، فلكل منا مشواره، وعليه أن يكمله حتى النهاية.

ثم تابعت الجدة بالقول بأن مشوراكِ لم ينته بعد وعليكِ إكماله، واختفت من أمامها كأنها رماد..

في اليوم التالي، تذكرت كلام جدتها، وأخذت تفكر بمقصدها من أن عليها إكمال طريقها، ولكنها لم تجد تفسيرًا لكلام جدتها.

هنا قررت العودة إلى برلين، وأخبرت حبيبها بذلك مما أسعده كونها اتخذت هذا القرار.

لكن في هذه الليلة وأثناء نومها أتتها جدتها في المنام مرة أخرى وقالت لها عبارةً واحدةً: إن إيطاليا تحتاجكِ.

وفي الصباح الباكر، تذكرت كلام "فرنسيسكا" وحاولت أن تجد تفسيرًا لكلامها، ولكنها لم تعطيه انتباه، فهي الآن بحاجة أن تكون بجانب حبيبها..

فقامت "صامويلا" وجهزت حقائبها، وخرجت من المنزل قاصدةً العودة إلى "ماريو" في برلين.

وبعد أن وصلت إلى حدود لومبارديا، منعها الجيش الإيطالي من الخروج، فالخروج من لومبارديا كان ممنوعًا إذ إن هذه الأخيرة كانت تعد منطقة وباء، وطلب منها العودة إلى المنزل حتى صدور أمر من الدولة الإيطالية يقضي بإلغاء الحظر المفروض على لومبارديا.

فعادت من حيث أتت، دخلت منزل جدتها، وراحت تشغل نفسها في متابعة الأحداث لعل يكون إلغاء الحظر عن لومبارديا قريبًا.

نامت في هذه الليلة، وأتتها "فرنسيسكا" سعيدة ثم أعادت لها نفس ما قالته سابقًا، بأن إيطاليا بحاجة إليكِ.

في اليوم التالي، وأثناء متابعتها لإحدى نشرات الأخبار، توقفت فجأة حين ورد خبر يفيد بأن إيطاليا تعاني من نقص حاد في الكوادر الطبية، من أطباء وممرضين، وأن المستشفيات باتت تعاني من ضغط يفوق قدرتها على الاحتمال.

حينها، عاد إلى ذاكرتها صوت جدتها "فرنسيسكا"، وكلماتها التي لم تفهم معناها في حينه، تمتمت والدمعة تلمع في عينها.. هذا ما كانت تقصده جدتي..

وفي لحظة شعرت فيها أن الحزن وحده لا يكفي، قررت أن تحوّل ألمها إلى فعل. نهضت وقد اتخذت قرارها بالالتحاق بالطواقم الطبية المتطوعة لرعاية المصابين بفيروس كورونا في المستشفيات الإيطالية، لترمم ما يمكن من هذه الإنسانية المهدورة.

توجّهت إلى قسم الشرطة دون تردّد، وسألت عن "ماركو"، فدلّها أحدهم عليه.

وحين رآها "ماركو"، ظهرت على وجهه ملامح الدهشة ممزوجة بالفرح، فسألها بلطف:

صامويلا! لم أتوقع رؤيتك هنا..

اقتربت منه بخطى ثابتة رغم الألم الساكن في قلبها، وقالت بنبرة جدية:

أنا بحاجة إلى مساعدتك، أريد أن أكون جزءًا من هذا الجهد، أن أساعد بأي طريقة.

ابتسم وقد لمس في عينيها تصميمًا جديدًا، مختلفًا عن الحزن الذي اعتاد رؤيته فيها، وقال:

— "سأفعل ما بوسعي... إيطاليا بحاجة إلى من هم مثلك..

فسألها عن نوع المساعدة التي تحتاجها؟
فأخبرته أنها بعد أن سمعت أن هناك نقصًا في الموارد البشرية في مستشفيات إيطاليا، قررت أن تتطوع لتساعد في هذا العمل خصوصًا أن إيطاليا عامةً وإقليم لومبارديا خاصة يحتاج لكل الطاقات البشرية لكي يتمكن من تجاوز هذه المحنة.
سُر بما سمع، وسألها عن المطلوب منه.
فأخبرته بأنها تريد منه أن يستفسر عن كيفية الالتحاق بالطواقم الطبية.
فقام بالاستفسار حول الإجراءات فورًا، وأخبرها بالتفاصيل.
ثم أرسلها إلى مدير أحد المستشفيات في إقليم لومبارديا، فذهبت إليه مباشرةً وطلبت لقاءه، فامتثل.
وبعد حديثه معها واطلاعه على خبراتها السابقة، وتقديره لهذه الخبرات قرر أن يعينها في الطابق الخاص بالمرضى كبار السن، فكان لذلك أثرٌ طيبٌ عليها، خصوصًا أنها كانت تعتبر أن كبار السن هم الضعفاء الذين هم بحاجة للرعاية الخاصة للخلاص من هذا المرض.
طلب منها أن تأتي في اليوم التالي لتستلم عملها.
غادرت وهي سعيدة جدًا بهذا القرار، وقصدت منزل جدتها، وهي في الطريق قامت بقطف بعض الزهور، وحملتها إلى المنزل.

وفي المنزل، قامت بتوضيب الزهور ووضعتها في وعاء بعد أن أضافت الماء لها لتقوم كل يوم بتغيرها لها.

في هذه الأثناء، كان "ماريو" يبحث في محفظته عن قلم، فوقعت عيناه على ورقة مكتوبة بخط يد "صامويلا" وكتبت له فيها: أحبكَ، أحبك يا "ماريو".

وفي هذه الأثناء حدثت رعشةٌ لصامويلا نتج عنها سرعة دقات قلبها، فتذكرت "ماريو" الذي اشتاقت إليه كثيرًا.

فاتصلت به، وما إن رآها تهاتفه حتى تبسم، وقال في قلبه: كأنها جالسةٌ معي.

أخبرته أنه لم يسمح لها لمغادرة إقليم لومبارديا، فغضب كثيرًا، ثم بكى لشدة غضبه.

لاحظت أن "ماريو" يبكي، فحاولت جعله يهدأ بكل السبل، تارة تقول له: أحبكَ، وتارةً: أعشقك، وتارةً أخرى: أنا سأعود فقط من أجلك.

هدأ قليلًا، وقال لها: إن هذا الحياة أصبحت كالجحيم بدونكِ، فبرلين مدينة أشباح ليس بسبب الحظر، وإنما لأنك لست فيها.

فقالت له.. كل شيء سيكون على ما يرام، وأعدكَ أنني سأعود في أول فرصة.

ثم أخبرته أنها ستقوم منذ الغد بالعمل في المستشفى لترعى المصابين بفيروس كورونا، وأنها مسرورة جدًا لذلك خصوصًا

أن جدتها أوصتها بذلك.

رغم حزن "ماريو" وخوفه أن عمل "صامويلا" في المستشفى قد يؤجل موعد عودتها إلى برلين، إلا أنه وبعد أن رأى السرور والسعادة التي تغمرها لم يكن لديه أي خيار سوى أن يبارك خطوتها، ويدعي سروره بهذه الخطوة.

نامت هذه الليلة سعيدة، فأتتها جدتها في المنام، وقالت لها: نعمه.. الإيطالية أنت.

في الصباح الباكر، استيقظت وحملت معها أمتعتها، ومن بينها المحفظة الطبية التي أهداها إياها الغالي على قلبها وذهبت من أجل أن تحارب محاربة الأبطال ضد هذا الفيروس اللعين.

وأصبحت تتنقل من سرير مريض إلى آخر، تهتم بكل مريضة ومريض كأنهم أهلها.

تنظف مكان هذا، تعطي الدواء لهذا، وتقدم الجهاز التنفسي للآخر.

كانت مسرورة جدًا بعملها، وتقدم العناية النفسية قبل الطبية بكل مهنية وإنسانية، فتقوم بمواساة المرضى وتشجيعهم وتطمئنهم أنهم سيصبحون بخير.

و كانت كل يوم تنهي عملها، ثم تذهب إلى الحدائق لتقطف الزهور التي تجلبها معها في اليوم التالي، وتقدمها للمرضى في الصباح الباكر.

استطاعت في أيام معدودة أن تثبت إخلاصها في العمل لدرجة أن الجميع كان ينظر إليها على أنها ابنة لجميع المرضى، وليس ممرضة فقط.

وفي يوم من الأيام وأثناء عودتها من المستشفى مرهقة وتحمل الزهور، التقت بجارتها التي سألتها عما هو عملها؟ فأجابتها بكل فخر بأنها ممرضة تعمل في مساعدة المصابين بفيروس كورونا.

سُرت جارتها بما سمعته، وأعدت لها القليل من الطعام وأرسلته إليها، فتفاجأت بفعل جارتها، خصوصًا أنه في برلين يعد هذا الأمر نادرًا.

وفي اليوم التالي، وبعد خروجها من منزلها إلى الشارع، تفاجأت أن معظم جيرانها قد تجمهروا أمام منزلها وعلى الشرفات، وما إن أطلت عليهم حتى صفقوا جميعًا لها ورشوا عليها الورود.

غمرت الفرحة وجهها، وأحست بفخر في نفسها، وتذكرت جدتها التي كانت تفخر بها وبعملها دائمًا.

ذهبت إلى عملها سعيدة بما قاموا به جيرانها، وقامت بإخبار زميلاتها بما حدث معها هذا الصباح...

وبعد أن خرجت إلى باحة المستشفى لتأخذ هواءً نقيًا رأت شابًا يتجادل مع موظفة الاستعلامات، فتقدمت وسألت موظفة الاستعلامات عن طلب هذا الشاب، فأجابتها أنه يريد أن يرى

والدته وهذا غير مسموح.
فتدخل الشاب، وقال: إن هذا اليوم هو عيد ميلاد والدته ويريد أن يحتفل معها خصوصًا أنه قد أحضر لها هدية.
لم تفكر كثيرًا، فسألت الشاب عن اسم والدته، فأخبرها.
فقالت له بأنها ستأخذ هديته وتقدمها لها، وذهبت إلى كافتيريا المستشفى، وأحضرت قطعة حلوى وشمعة، ثم طلبت من الشاب أن يعطيها رقم هاتفه، ففعل.
ذهبت إلى غرفة السيدة المريضة، وأضاءت لها الشمعة على قطعة الحلوى، واتصلت بابنها واحتفل مع والدته وسط سعادة عارمة من خلال مكالمة مرئية.
تشكر الشاب "صامويلا" لما فعلته، وقدم لها باقة ورود تقديرًا لإنسانيتها.
في هذا اليوم، طلبت من موظفة الاستعلامات أن تجعلها تتطلع على كشفوف المرضى المصابين، وبدأت في تسجل أعياد ميلادهم على ورقة أحضرتها مسبقًا معها.
وفي كل عيد ميلاد للمرضى المصابين تقوم بتحضير الحلوى والشموع، وتدعو زميلاتها للاحتفال بأعياد المرضى.
كان لهذا الفعل أثر نفسي إيجابي لدى الكثير من المرضى، وبدأ قسم منهم يتعافون ويغادرون المستشفى.
في هذه الأثناء، كان "ماريو" يعمل بكل ما لديه من قوة وجهد

هو ومن معه لمحاولة معرفة نوع هذا الفايروس الذي قد يؤدي إلى فناء البشرية.

فيقوم بتحليل تلو الآخر، ويقرأ دراسة تلو الأخرى قد ترشده إلى خيط يبدأ منه لتكوين فكرة عن هذا المرض ليقوم بابتكار علاج له.

إلا أنه رغم انشغاله بهذا المرض وإجراء الأبحاث عن المرضى، فإنه لم يتقاعس يومًا بالاطمئنان عن حبيبته وحالتها.

فضلًا عن ذلك، كان شغله الشاغل إيطاليا وما يحدث بها وبالذات إقليم لومبارديا.

فكان يتابع كل النشرات الإخبارية التي تتحدث عنها، ويتصفح مواقع التواصل الاجتماعي موقعًا موقعًا لعله يحظى ببعض الأمل الذي يتحدث عن إلغاء الحظر عن لومبارديا، لكي تتمكن "صامويلا" من العودة إلى برلين.

وبين اللحظة والأخرى، يجلس يتذكر "صامويلا"، وحديثها المشوق، ولمساتها الناعمة.

وفي كل مرة، يجلس شاردًا تكون هي محور اهتمامه، وموضوع كتاباته، وأشعاره.

وبعد انتهائه من تخيلها، عاد بجسده للوراء فكان يشتاق لها حدّ التعب، حتى تحوّل شوقه إلى غضب، كأنّ الحنين يعاقبه لأنه أحبّها أكثر مما ينبغي.

فراح يسأل نفسه:
هل هو انتقام اللّه منا؟
فها أنا أصبحت بلا هوية، بلا وطن، وبلا قلب.
ف"صامويلا" هويتي، ووطني، وقلبي قد رحل معها، وكيف لطبيب أن يعمل دون قلب وهو أول أدوات العمل في هذه المهنة.
أنا طبيب الجميع وهي طبيبتي.
في صبيحة اليوم التالي توجّه إلى عمله كعادته، ثم ذهب بعدها إلى البروفيسور مثقلًا بهمومه وبذات حالته المنهكة، حاول أن يواصل العمل على بحثه لكن التعب كان قد بلغ منه مبلغًا كبيرًا، حتى إن البروفيسور لاحظ ذلك فنصحه قائلاً: عد إلى منزلك واسترح قليلاً لقد أرهقت نفسك أكثر مما ينبغي.
فكان حبه لـ "صامويلا"غريبًا، أشبه باتحاد روحين في جسدين، وكأنها تسكنه لا تترك له مهربًا من الشعور.
استجاب لنصيحة البروفيسور، وغادر نحو منزله، لكن التعب كان أقوى من قدرته على الاحتمال، فانهار وسقط أرضًا في الطريق.
شاهده أحد المارة، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منه، إذ خشي أن يكون مصابًا بفيروس كورونا، فاكتفى فقط بالاتصال بالشرطة.

حضرت الشرطة سريعًا برفقة طاقم من فرق الإنقاذ، وتم نقله إلى المستشفى على الفور .

في المستشفى، قام المختصون بفحصه وازدادت شكوكهم إذ أن حرارته كانت مرتفعة فقاموا بإجراء فحص الكورونا له.

وما أن استيقظ حتى بحث عن هاتفه، فلم يجده، فقد يكون قد فقده عندما سقط أرضًا.

بعد عدة أيام، تبين أن نتيجة فحصه جاءت سلبية، وأنه يعاني فقط من الإجهاد والقلق الزائدين.

طوال هذه الأيام، كانت "صامويلا" تذهب إلى عملها كالمعتاد، ولكنها نظرًا لأنها اتصلت بـه أكثر من مرة ولم يجب أصابها حالة من القلق.

فقررت أن تتصل بأحد أصدقائه الذي أخبرها أنه لا يعلم عنه شيئًا.

فطلبت من صديقه بأن يذهب إلى معهد الأبحاث ليسأل عنه.

وعند وصوله المعهد سأل عنه، فادخله أحدهم مكتب البروفيسور فأبلغه أنه لم يأت إلى المعهد منذ أربعة أيام، ولكنه شرح له حالته في الأيام الاخيرة وبأنه في آخر يوم حضر به إلى المعهد، كان مرهقًا وطلب منه العودة إلى المنزل ليستريح، ومنذ ذلك الوقت لم يأت إلى المعهد، وعند محاولة الاتصال به لم يقم بالرد عليه ومن ثم اغلق هاتفه..

غادر صديقه المكان وتوجه إلى قسم الشرطة، وخلال البحث عن اسمه أخبره الموظف هناك أنه يرقد في المستشفى بعد أن تم نقله إليها، وذلك بعد أن وجدوه ملقى على الأرض في الشارع.

توجه صديقه إلى المستشفى ليطمئن عليه، وفي المستشفى أخبره الأطباء أن حالته مستقرة، ويعاني فقط من الإرهاق، ولكن لا يمكن الدخول إليه بسبب إجراءات الوقاية المتبعة في المستشفيات.

حينها قرر الإتصال بـ"صامويلا"، وأخبرها عن وضعه.

وبعد إنهاء المكالمة، وقع جسدها على الأرض وهي تلوم نفسها عما حدث له، خصوصًا أنها تعلم أنه متعلق بها جدًا كتعلق الابن بوالدته.

وبعد مرور أيام، خرج "ماريو" من المستشفى وأول ما فعله أشتري هاتف جديد وسجل رقم حبيبته واتصل بـها ليسمع صوتها ويطمن قلبه من جديد، ففرحت عندما سمعت صوته وعلمت أن حالته قد تحسنت، وأخبرته أن ما هي إلا أيام وستمر، وأنها ستأتي إليه في أقرب وقت.

واغلقت معه وذهبت تتابع عملها كالمعتاد بجدية وإنسانية فائقة، فتعتني بالجميع من حولها، وتجهد نفسها.

ساعات طويلة تقضيها في المستشفى، وتعود إلى منزلها

متعبةً مرهقة.
ورغم حالة التعب والإرهاق المسيطرة عليها إلا أن حنينها إلى حبيبها لم ينقطع لحظة.
وكانت تحمّل نفسها مسؤولية ما قد حدث له، خصوصًا أنها في الآونة الأخيرة كانت قد انشغلت عنه تارةً مع جدتها وتارةً في عملها داخل المستشفى.
أحبت تعويض هذا التقصير معه، فكانت كل يوم تتواصل معه عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وتحديدًا عبر الفيديوهات المرئية.
ورغم أنها كانت تأتي كل يوم من عملها مرهقة إلا أنها كانت تقوم بواجبها اتجاهه بشكل مستمر.
استمرت على هذه الحالة حتى تمكن من الشفاء التام والعودة إلى حالته الطبيعية للخوض في بحر البحث عما هو هذا الفيروس وكيف انتشر بهذه الطريقة السريعة بين الدول؟
وعادت حياتهما كما كانت قبل دخول "ماريو" المستشفى، هي تذهب إلى عملها في المستشفى، ويتابع هو أبحاثه في المعهد.
وفي أحد أيام خدمتها في المستشفى لاحظت "صامويلا" أن هناك أمورًا غير طبيعية تحدث في المستشفى، فلاحظت أن معظم كبار السن في الطابق الذي تخدم به لا يتوفر لهم

أجهزة تنفسية.
فكرت قليلًا ثم ذهبت إلى الطبيب المسؤول عن القسم لسؤاله.
الذي أخبرها أن إقليم لومبارديا بل إيطاليا بأكملها تعاني من نقص في الأجهزة التنفسية الصالحة للاستعمال، وأخبرها أنه في الأيام المقبلة سوف تأتي شحن المواد الطبية من الخارج، وسيكون من بينها عدد من الأجهزة التنفسية.
وفي حال حضورها، سيقوم بتخصيص قسم كبير منها إلى هذا الطابق الذي تعمل به..
سُرت بما سمعته من الطبيب، وانطلقت تراقب النشرات الإخبارية لتتأكد من مصداقية كلام الدكتور.
فعلمت أن الصين بعد قدرتها على احتواء الوباء، قررت أن تقوم بمساعدة الدول المتضررة من الفيروس، ومن بينها إيطاليا، فسوف تقوم بتزويد إيطاليا بالمواد الطبية اللازمة لمكافحة الوباء، كالكمامات، الألبسة الطبية والأجهزة التنفسية.
رغم كلام الطبيب المسؤول إلا أن حالةً من القلق سيطرت عليها، فكانت دائمًا خائفة على من حولها من المصابين ولكنها في نفس الوقت كانت تسعى جاهدةً إلى طمأنتهم بكلام مطمئن بأن حالتهم الصحية سوف تزداد تحسنًا يومًا بعد يوم، وما هي إلا أيام وسوف يكون كل شيءٍ على ما يرام، وسيتم إخراجهم من المستشفى إلى البيت.

كانت "صامويلا" ما تزال صابرة وتعمل دومًا بإنسانيتها العالية قبل مهنيتها المطلوبة، وتحدث الجميع بكل أدب وتحضر لهم ما يطلبونه منها على الفور.

مرت الأيام وفي أحد أيام خدمتها، كانت إحدى المصابات حالتها تزداد سوءًا دقيقة تلو الأخرى، بل ثانية تلو الأخرى بسبب عدم قدرتها على التنفس، فذهبت "صامويلا" تركض من غرفة إلى أخرى، ومن زاوية إلى أخرى، من مستودع إلى أخر باحثة عن جهاز تنفس يمكن استخدامه، إلا أنها بحثت طويلًا حتى وجدت جهازًا فارغًا، فطلبت من زميلتها أن تساعدها لنقله إلى غرفة المريضة المصابة.

وبعد أن تمكنت بمساعدة زملائها من نقله إلى غرفة المريضة، فكانت المريضة قد لفظت أنفاسها الاخيرة، ورحلت إلى مسواها الأخير..

حاولت أن تضع لها الجهاز لعلها تستفيق، وبدأت تضغط على قلبها دون جدوى.

جن جنونها بعد مشاهدة المريضة متوفية وسارت تبكي، وكأنها جدتها "فرنسيسكا".

حمّلت الطبيب المسؤول المسؤولية عن وفاة هذه السيدة، كانت تصرخ بوجه وتقول له: أنت من طلبت نقل الأجهزة التنفسية من هذا القسم ليتم تقديمه إلى قسم المصابين

الأصغر سنًا.

تحدث معها الطبيب بلباقة، وحاول أن يشرح لها كيف يتم التعامل مع المرضى في هذه الظروف.

فقال لها: إنه عندما طلب بنقل الأجهزة التنفسية إلى القسم الآخر كان وقتها القسم الآخر بحاجة إليها، ونحن لم نكن بوقتها بحاجة إليها، وكان لدينا حالات معدودة ليست بحاجة لهذه الأجهزة.

ثم أكمل كلامه بصوت هادئ، أقدر إنسانيتك وأتفهمها، ولكن أنا عندما قررت نقل الأجهزة إلى القسم الآخر فكرت بإنسانية وقمنا بإنقاذ أرواح ناس من الموت.

نحن أطباء ونفكر دائمًا بإنسانية لا نفكر بكبير أوصغير.

فالإنسانية تتطلب منا في بعض الأوقات أن نخاطر ليس بأرواح الآخرين فقط، بل بأرواحنا أيضًا.

فأنا وأنت وكل الطواقم الطبية وعمال التنظيف والشرطة وفرق الإنقاذ الأخرى نأتي كل يوم إلى أعمالنا ولا نعلم إذا كنا سنعود إلى منازلنا أو لا.

أنتِ إنسانية إلى أبعد حدود، ولكنكِ لم تفكري إلا في هذه المريضة التي توفت.

اقتنعت بوجهة نظره، وقامت بالاعتذار منه فقبل اعتذارها،

واقترب منها ووضع يده على كتفها، وطلب منها أن تذهب لتأخذ بعض الاستراحة، ولكنها رفضت..

وقالت له: إن هناك الكثير من العمل الذي يتوجب علينا القيام به اليوم.

فنحن لم نأتِ لنأخذ قسطًا من الراحة، بل جئنا لنمنحها لأولئك الذين يتألمون.

فالمحارب لا يعرف الإستراحة ما دامت الحرب قائمة.

والحرب، كالحب، لا تقبل أنصاف الحلول؛ إما نصر نحققه، أو هزيمة تبتلعنا.

وهكذا نحن، إما أن ننتصر على هذا الوباء، أو نموت واحدًا تلو الآخر.

نحن هنا لنضحي بكل شيء...ليس فقط بوقتنا وصحتنا، بل حتى بأبسط تفاصيلنا.

قال لها الطبيب ممازحًا: وجمالنا.

ضحكت ومازحته: أهذا غزل؟

أجابها: لا، بل حقيقة... انظري لنفسك في المرآة وستفهمين ما أقصد.

ونظرًا لها لكونها شابة ذات ملامح بريئة، بعينين زرقاوين وشعر منسدلٍ دون إرادة منها، وجسدٍ ممشوقٍ تهتم دائمًا

بجماله كأي امرأة، لكنها لم تحتمل ما قاله الطبيب؛ فهي تعشق سماع كلمات الغزل، ولكن من حبيبها فقط.
استأذنت منهم وغادرت مباشرةً، وتوجهت إلى المرحاض فأزالت الكمامة الطبية عن وجهها، فتفاجأت.
قالت: يا رباه، وكأن هذه الأيام التي عملت بها ليست أيامًا وإنما سنين، فآثار الكمامة على وجوهنا وآثار التعب الظاهر علينا كأنها إصابات وقت الحرب.
فعادت إلى الطبيب مبتسمةً، وقالت له: إنني لم أعش أية من الحروب التي خاضتها بلادنا من ذي قبل، ولكن منذ هذه اللحظة فهذه حربي، حرب البقاء أو الفناء.
فقال لها الطبيب: هذه الحرب ليست حربكِ وحدكِ، بل حربنا جميعًا أنت وأنا جنود فيها، وعلينا أن نتعاون جميعًا لكي ننتصر، فالجندي لا يمكن له أن ينتصر وحده، بل بمشاركته رفاقه المحاربين، والاستماع إلى توجيهات القيادة، وتنفيذها بحذافيرها.
هزت "صامويلا" برأسها، وقالت: إنني سأنقذ كل ما يمليه عليّ ضميري، وليس كل ما تأمر به القيادة.
هنا، قلق الطبيب من كلامها، لكنه تفهم أن "صامويلا" تعمل بإنسانيتها حتى لو كان ذلك على حساب عصيان الأوامر وعدم تنفيذها.

غادرت مكتب الطبيب، إلا أن كلام الطبيب لم يقنعها فخافت على المرضى كبار السن.

فبدأت تعمل، وتراقب أعمال زملائها في القسم، وتتحقق من توافر كل المواد الطبية للمرضى المتواجدين في القسم.

وفي كل مرة يشفى أحدهم من المرض، تقوم بالاحتفال به، وتشجيعه حتى لحظة خروجه من المستشفى.

حتى في أوقات تحضيرها الطعام تحضر الطعام لنفسها ولزملائها، وتقوم بدعوة عمال النظافة لتناول الطعام معهم.

هذا الأمر لم يعجب إحدى زميلاتها التي ذهبت تقول لها: نحن نأكل مع بعضنا ونتقاسم الطعام فيما بيننا، لكن عمال النظافة ليسوا منا، وخصوصًا أن معظمهم ليسوا طليان.

استفزها هذا الكلام كثيرًا، وقالت لزميلتها: إذا لم يكونوا هؤلاء منا كطليان، فإنهم منا كبشر لهم مشاعر وأحاسيس.

واكملت.. إذا لم تتعاملي بإنسانية مع هؤلاء، فكيف يمكن أن تؤتمني على خدمة هؤلاء المصابين، خصوصًا أنه قد يكون من بين المصابين أجانب وليس طليان.

وأضافت: ما ذنب الإنسان إذا ولد بأفريقيا أو بأيّ مكان بالعالم؟ فهل ولادته بأفريقيا تنتقص من كونه بشر له مشاعر وأحاسيس؟

وهل الله حصر البشرية في الطليان وحدهم؟

أحبت زميلتها أن تبرر كلامها فقالت: إنهم يعملون في النظافة وهذا العمل قد يكون أكثر عرضة لانتقال الفيروس إليهم ثم انتقاله إلينا.

أجابتها.. وهل هذا جزاء من يخاطر بنفسه ليقوم بعمله؟ ومن القائل بأنهم عرضة أكثر من غيرهم لتقبل العدوى؟ فنحن من نلمس المريض، ونتواجد معه طوال الوقت، نحن عرضة للإصابة أكثر من هؤلاء لالتقاط الفيروس.

اقتنعت زميلتها بكلامها، واعتذر منها، فأخبرتها بأنه لا يتوجب عليها الاعتذار منها، وإنما الاعتذار منهم هم، وشكرهم على مجهودهم وخدمتهم، خصوصًا أنهم بقوا معنا كمحاربين يحاربون في الصفوف الأمامية، ولم يتخلوا عنا، ويرحلوا إلى بلدانهم، وحتى لو أنهم فعلوا ذلك فكان هذا حقهم.

فلا أحد يستطيع أن يجبرهم على المخاطرة بحياتهم من أجل أشخاص ليسوا من جنسياتهم.

أنهت "صامويلا" كلامها وتابعت عملها، ثم غادرت المستشفى إلى المنزل.

حين أشرقت شمس اليوم التالي، ارتدت ملابسها وذهبت لعملها وعندما وصلت رأت زميلتها التي كانت تتحدث معها أمس برفقة زملائها الآخرين متجمعين، وما إن حضرت حتى طلبوا منها أن تأتي معهم.

سألتهم.. إلى أين أنتم ذاهبون؟
أخبرتها زميلتها بأنها ستعلم لاحقًا.
ووصلوا إلى غرفة تواجد عمال النظافة، وما إن خرج عمال النظافة من غرفتهم للقيام بعملهم حتى بدأت زميلتها ومن يرافقها بالتصفيق لهم كشكر لهم على جهودهم في محاربة هذا المرض.
فغمرت زميلتها وشكرتها على ما قامت به، فردت زميلتها عليها بالقول لا يتوجب عليكِ شكري، فأنا من يتوجب عليه فعل ذلك.
فقد نورتِ لي أشياء كانت غائبةً عني، فقد تعلمت منكِ يا صديقتي، أن الإنسانية لا تعرف لونًا، ولا جنسية، ولا جنساً، ولا مكاناً، ولا سناً... هي قيمة سامية تتجاوز حدود الأوطان، وتعلو على كل الإنتماءات، وتسمى على كل ولاء ضيق.
فما قيمة الإنسان إذا ادّعى الوطنية وهو مفتقدًا للإنسانية؟ وما جدوى وجوده في هذه الدنيا إن لم يتحلّ بالإنسانية والرحمة ويطبقهما في كل فرصة أو موقف يُختبر فيه؟.
ثم أضافت، وقالت: كوني فخورة بنفسكِ، فأمثالكِ نادرون في هذه الدنيا التي يسيطر عليها الأنانية والعنصرية، بل لن أجاملكِ إذا قلتِ لك بأنكِ ملاك وسط هذا البشر.
فأخبرت "صامويلا" صديقتها أن حبيبها "ماريو" كان يوصفها دائمًا بالملاك.

فسألتها زميلتها: وهل يحبكِ إلى هذا الحد؟
فردت.. مهما قلت لكِ فلن تصدقي.
فقالت زميلتها لها إنه كان صادقًا بكل ما قال، فأمثالك خير ما أنجبته البشرية.
فشكرتها "صامويلا" على مدحها لها، وقالت لها: دعكِ من كل هذا فما زال لدينا الكثير لنقوم به، فهناك من يحتاجنا.
نحن منذ لحظة دخولنا من باب المستشفى لم نعد ملك أنفسنا، وإننا ملك غيرنا.
تابع الممرضون أعمالهم، وكانوا عند تعافي كل مريض يزدادون فرحًا، وحبًا للتضحية، ولتقديم أغلى ما يملكون.
وكان أغلى ما يملكون واحدًا منهم فتك به الفيروس فقضى على حياته.
قالت "صامويلا" حينها: نحن نحارب الموت، ولكنه لم يكن خيارًا، وإنما فرض علينا، وبالتالي يجب علينا أن ننتصر على الموت لأن بالانتصار على الموت فقط، قد نحيا.
ثم قاموا بتوديع زميلهم الطبيب من خلال إلقاء نظرة عليه، وأقسموا له بأنهم سيتابعون السير بما يملكون من أدوات حتى النصر.
في هذه الفترة، كانت قد حضرت شحنة مواد طبية من الصين نظرًا للنقص في هذه المواد في المستشفيات الإيطالية، كما

وعدها المسؤول في المستشفى في السابق.
سُرت بما سمعته، وانتظرت وصول الشحنة إليهم في المستشفى.
وتم توزيع المعدات والمواد الطبية على المستشفيات، ومن بينها المستشفى التي تعمل بها..
فقامت بمساعدة زملائها بفرز الملابس والكمامات الطبية وإذا بها تالفة بالكامل.
صُدمت هي وزميلاتها بما رأوه، فركضت برفقة زملائها لتفحص الأجهزة الطبية التي كانت متهالكة هي الأخرى.
أخبرت مسؤوليها المباشرين عن ذلك، وتيقنت أن عليها وعلى زملائها أن تعمل بما هو موجود.
فأملها بتوفر المواد والمعدات الطبية يتضاءل يومًا بعد يوم، فراحت تسعى جاهدة هي وزملاؤها للتوفير في المواد الطبية، خصوصًا ملابسهم والكمامات الطبية التي كانت مقطوعة إلى حد ما.
ونتيجة ازدياد عدد المصابين في إقليم لومبارديا يومًا بعد يوم خصوصًا في صفوف المسنين كبار السن، لاحظت أن الأجهزة التنفسية في القسم الذي تعمل به تنتقص يومًا بعد يوم، وأن عددًا من المسنين ممن كانوا يتمتعون بالأجهزة التنفسية، يعيشون من دونها وكأنها أُنتزعت عنهم قصدًا.

وفي إحدى الليالي، وأثناء نومها حلمت أن بعض الأطباء يقومون بنزع الأجهزة التنفسية عن المرضى كبار السن ومنحها للشباب المصابين بالمرض.

فاستيقظت.. ولبست ملابسها، وتوجهت إلى المستشفى في منتصف الليل، وأثناء دخولها إلى القسم الذي تعمل به رأت أن كل شيءٍ كما هو، باستثناء مسن كانت قد وضعت له جهازًا تنفسيًا، فوجدته من دون هذا الجهاز.

ذهبت مسرعة لزميلتها وسألتها، ظهرت عليها علامات الدهشة من وجودها وسؤالها المفاجئ..

يبدو أنكِ اختلطت عليكِ الأمور، فهذا الرجل لم يكن موصولًا بجهاز تنفسي منذ وصوله..

سكنت الكلمات في حلقها، واكتفت بالهمس لنفسها: لعل ذلك صحيح..

إلا إنها لم تقتنع حتى بما قالته لنفسها، غادرت المستشفى متجهة إلى منزلها، وفي الصباح الباكر عادت إلى عملها كما اعتادت..

وبعد انتهاء عملها، قررت أن تختبر زميلتها فوضعت جهازًا تنفسيًا لأحد المرضى كبار السن وغادرت.

فذهبت إلى منزلها، وما إن حلّ الظلام حتى عادت إلى المستشفى من دون أن تخبر أحدًا.

فدخلت من الباب الخلفي، باب الطوارىء وبدأت تتجسس، وتنتظر ماذا سيحدث؟

بعد فينة من الوقت، أتت زميلتها، وبهدوء نزعت الجهاز التنفسي عن ذلك المريض، وقامت تنقله بمساعدة أحد الأطباء إلى القسم الخاص بالشباب.

وما إن بدأت زميلتها بمساعدة الطبيب بتركيب الجهاز للشاب حتى ظهرت أمامهم "صامويلا"، واحتجت على ما فعلوه.

وبدات تصرخ في وجههم وهي تقول:أنتم لستم أطباء، أنتم مجرمون، فكانت عيناها تشتعلان من الغضب..

واكملت، فالطبيب الذي ينزع جهازًا تنفسيًا عن مريض، لا يختلف عن قاتل يتعمد إنهاء حياة إنسان.

حاول الطبيب أن يهدئ من حدّة انفعالها، وأخذ يشرح بهدوء: افهمي الشاب كان بحاجة ماسة للجهاز، أكثر من ذلك المسن الذي لم يعد جسده قادرًا على المقاومة. نحن لم نختر الموت لأحد، بل منحنا فرصة للحياة لمن لا يزال أمامه عمر كامل..

فردت عليه.. الإنسان إنسان سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، ولسنا نحن من يحدد من أخذ نصيبه من الدنيا ومن لا.

هناك من البشر من يعيش دهرا من الزمن، ولكنه يبقى دون حياة، وهناك من يعيش عمرًا قصيرًا ويأخذ نصيبه كاملًا منها. فالرب هو الذي يحدد من أخذ نصيبه وليس نحن.

جادلها هذا الطبيب وقال لها: إذا فإن اللّه قادرٌ على إنقاذ ذلك المسن دون الجهاز التنفسي.

فاجابته: نعم قادر، ولكن لا يتوجب علينا أن نضع الإنسان في خطر ونقول أن اللّه سينفذه.

فأفعال اللّه لا يمكن أن تتناقض مع المنطق.

فأي دين للّه سيكون هباءً، إذا كان يتناقض مع المنطق، فالدين أساسه العقل قبل كل شيء.

ثم استطردت قائلةً: دعنا من كل هذا، ولنقم بإعادة الجهاز إلى المسن.

رفض الطبيب طلبها والذي جعلها تغضب غضبًا شديدًا وعادت تصرخ، مما أغضب الطبيب.

وقال لها وسط غضبه: أنا من يحدد ماذا سيكون وليس أنتِ؟ أنا هنا الطبيب.

غادرت المكان، ولكنها اختارت أن تمكث في المستشفى هذا المساء إلى أن يبدأ وقت عملها..

وفي الصباح ارتدت ملابسها وبدأت في عملها وفي أثناء مرورها، لم ينتبه لها "فرنسيسكو" وهي كذلك لم تنتبه له.

أنهت عملها في هذا اليوم وذهبت إلى منزلها حزينةً، غاضبةً مما حدث معها.

اتصلت بـ "ماريو" الذي كان ينتظر اتصالها، فأخبرته بما حدث

فتأثر كثيرًا وحزن على ما يحدث معها، وأخبرها أن هذا من المستحيل أن يحدث في مهنة الطب التي جوهرها الإنسانية.
في اليوم التالي، وبعد أن دخلت إلى غرفة المريض المسن الذي نزع عنه الجهاز لاحظت أن هذا المريض لا يلتقط أنفاسه، فحاولت مساعدته بشتى الطريق، فسارت تبحث عن جهاز تنفسي، ولكنها لم تجد، وعند عودتها فارغة اليد كان الرجل قد فارق الحياة.
ونتيجة ما حدث، قررت أن ترفع دعوى على هذا الطبيب بتهمة القتل العمد.
فتوجهت إلى قسم الشرطة، وهناك التقت بـ "ماركو" وأخبرته بما حدث، وطلبت منه أن يفتح تحقيقًا في الموضوع.
وبسبب إصرارها، وافق على طلبها وفتح تحقيقًا فوريًا في الأمر.
وأثناء سير التحقيقات، أبلغهم الطبيب المتهم بأن الطبيب المسؤول عنه هو من أصدر له التعليمات، مبررًا ذلك بالنقص الحاد في أجهزة التنفس داخل المستشفيات.
عندها، طلب "ماركو" إحضار ذلك الطبيب المسؤول، فذكر المتهم اسمه على الفور.
وحينما حضر الطبيب، كانت "صامويلا" تنتظر في الخارج.
وما إن وقع بصرها على القادم حتى تجمدت في مكانها، اتسعت عيناها بدهشة وهمست:

"فرنسيسكو؟

لقد كان هو، الطبيب المسؤول عن إصدار تلك التعليمات.

ورغم أنه رآها من بعيد، ولكنه لم يعط لها أي اهتمام كأنها مجرد سراب، وتابع طريقه نحو غرفة التحقيقات.

وبعد استجوابه وخروجه، وجدها ما تزال واقفة في الخارج، تنتظره.

اقترب منها وقال بنبرةٍ يغلُب عليها الحنين:

"اشتقت إليكِ، ما زلتِ كما كنتِ، شكلًا ومضمونًا، جميلة رغم آثار الكمامة على وجهكِ، وإنسانية كما عهدتك، لم تُغيّرك الحياة".

لكن جاء ردها كالسهم:

أما أنتَ، فقد تغيّرت، حملت عن أبيك أفكاره الإجرامية، وها أنت تقتل الأبرياء والمساكين دون ذرة ندم.

حاول تبرير موقفه وشرح لها الظروف والنقص والحالات الطارئة، لكنها لم تقتنع.

رأت في ذلك جريمة تُرتكب بحق كبار السن، لا مبرر لها.

ورغم محاولاتها لانقاذ المرضي كبار السن، أُغلقت القضية بعدما أوضح للشرطة أن ما فعله كان ضرورةً قصوى في ظل عجز المستشفيات، وندرة الأجهزة الطبية.

لكن ما حدث زاد من نقمة "صامويلا" عليه، ومن يومها، كانت كلما صادفته في مكان، تجاهلته كأنه لم يكن..

وفي أحد الأيام، وأثناء خدمتها حضر "فرنسيسكو" مع طبيبة أخرى لتفحص المرضى، وكانت "صامويلا" حاضرة، فعرفها على الطبيبة بكونها زوجته.

فقالت زوجته: أليست هي على اسم حبيبتك السابقة التي غدرت بكَ ورحلت.

ابتلع "فرنسيسكو" ريقه بعد أن نظرت إليه "صامويلا"، وأخذ زوجته، وأكمل عمله في فحص المصابين.

استذكرت "صامويلا" والديها وكيف أن والديها قد توفيا بسبب أفعال والده الإجرامية.

حدثت "صامويلا" "ماريو" عن أنها التقت ب "فرنسيسكو" صدفة في المستشفى، وأنه يعمل معها في نفس المستشفى.

فانشغل باله تارة من الغيرة عليها منه وتارة مما فعله معها، وخصوصًا أنها لم تنس أن والده كان السبب في وفاة والديها.

بدا "ماريو" يتصل بـها كثيراً فلم تمر ساعة حتى تجد اتصالاً جديداً منه، فأحست "صامويلا" بغيرة "ماريو".

ففرحت بهذه الغيرة، واطمأن قلبها أن حبها في قلب "ماريو" لم يتغير، وقالت له: طمئن قلبك، فحبي لك لن يعبث به مخلوق، فمشاعري وأحاسيسي ليست ملكًا لي وإنما لكَ.

كان يسمعها بفرحة فكلماتها غمرت قلبه وقال:
لا الحياة حياة، ولا القلب قلب إن لم يسكنهم من نحب
صارت "صامويلا" تتفادى "فرنسيسكو" كلما رأته، وتحاول ألا تحتك به.
وذات يوم، وأثناء مرورها من الممر أوقفها. وحاول أن يبرر لها ما سمعته من زوجته.
فقالت له.. لا أريد أن أسمع منكَ شيئًا، فأنت شيطان كوالدكَ لا تختلف عنه بشيء.
صدم مما سمعه منها وغادر المكان.
وبعد مرور عدة أيام، وأثناء خدمتها حضر مريض كبير السن وكان في حالةٍ سيئة، فقامت باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة له، فوضعت له الجهاز التنفسي وقامت بالاعتناء به كأنه والدها.
وبعد عدة دقائق، حضر "فرنسيسكو" إلى غرفة المريض ليُجري الفحص الروتيني.
وما إن خرج منها، حتى أجهش بالبكاء في الممر المجاور، محاولًا كتم دموعه دون جدوى.
كانت في هذه اللحظة تمر "صامويلا " بالقرب من الغرفة، فاستوقفها المشهد.
رفعت عينيها نحوه بدهشة، فليس من عادته الانهيار.
اقتربت منه وسألته بصوتٍ مشوب بالقلق:

لمَ كل هذا؟ ما الذي حدث؟
رفع عينيه المُحمّلتين بالدموع، وهمس بصوتٍ مكسور:
هل تعلمين من هذا المريض؟
هزّت رأسها وقالت: لا، لا أتذكره.
تنهد بعمق، وأجاب: إنه أبي.
سرت قشعريرة في جسدها، وتجمدت ملامحها للحظة من وقع المفاجأة.
ثم تماسكت واقتربت منه، ووضعت يدها على كتفه وقالت:
لا تقلق سيكون بخير، بإذن اللّه.
ومنذ تلك اللحظة، تغير كل شيء.
بدأت "صامويلا" تعتني بوالده وكأنه والدها.
لم تكتفِ بالمتابعة الطبية، بل كانت تُطعمه بيديها، وتضيف بنفسها الفيتامينات والمقويات إلى أدويته، بعناية أم تحتضن أبناء الحياة في ضعفهم..
فبرغم ما حدث لها بسبب هذه العائلة إلا أن إنسانيتها جعلتها تتناسي ما حدث..
لاحظ "فرنسيسكو" ذلك، سُر بما تفعله، وأراد أن يشكرها على ما تفعله.
فقالت له.. أنا أقوم بواجبي تجاه والدكَ كما أقوم بعملي تجاه غيره.

فأخبرها بأنها لديها فرصة للانتقام لوالديها منه.
فضحكت وقالت: خطأ الآخرلا يمنحنا تصريحًا لنُخطىء نحن أيضًا، فربما كان لخطئه ظروف تبرّره، أما نحن، فبماذا نُبرّر تقصيرنا؟ ما عذرنا إن أخطأنا عن وعي واختيار؟..
وعندما يشفى والدك، لعلنا نسأله ما كانت حجته ليقوم بهذه الأعمال الإجرامية.
نحن بشر، والبشر بطبعهم يخطؤون، ولكن العبرة ليس بالخطأ أي بفعله وإنما العبرة بالتراجع عنه والاعتراف به.
والدك أخطأ ولا نعلم لمَ، ولكن لماذا أنتَ تخطئ في حق المسنين وتنزع عنهم الأجهزة التنفسية.
فهل لكَ حجة؟ هل أنت مقتنع بما تفعله؟
فكر "فرنسيسكو" بكلامها، الذي جعل ضميره يؤنبه، وكأنه فعل شيئًا كبيرًا، ولكن كاد يجد لنفسه مبررًا أنه يحاول أن يحمي حياة الشباب في إيطاليا.
وبعد عدة أيام، احتاج قسم الشباب جهازًا تنفسيًا لشابٍ في مقتبل العمر.
وبما أنه لم يكن في القسم التي تعمل به "صامويلا" سوى الجهاز التنفسي الذي يستخدمه والد "فرنسيسكو"، طلب الطبيب الذي يخدم في قسم الشباب منها أن تنزعه عن والد "فرنسيسكو" لكي يتمنكوا من إعطائه للشاب صغير السن، إلا

أنها رفضت طلبه، وعارضته بشدة.
قالت للطبيب بصوت مرتفع: لن تتمكنوا من نزع هذا الجهاز عن المريض إلا حين أفارق الحياة، فعندئذٍ فقط يمكنكم فعل ذلك.
ثم أضافت بالقول، لن أقوم بنزع الجهاز التنفسي عنه، حتى لو طلب "فرنسيسكو" ذلك.
سأل الطبيب من معه، من كانت تقصد بـ "فرنسيسكو".
فأخبرته الممرضة أن هذا المريض يكون والد الطبيب "فرنسيسكو".
غادر هذا الطبيب، وذهب إلى "فرنسيسكو"، وأخبره بما حصل.
بعد فترة من الوقت، كان قد حضر "فرنسيسكو" إلى غرفة والده للاطمئنان عليه.
في هذه الأثناء، لم تكن "صامويلا" حينها في الغرفة، فانحنى وراح يقبل يد والده ويقول: ليتك تعلم من يعمل على إنقاذكَ من الموت.
كم من شخصٍ نقوم بقتلهم وهم من يسعون جاهدين لإنقاذ حياتنا، بل يقتلون أنفسهم لكي نحيا نحن، يضحون بأغلى ما يملكون وهو حياتهم لكي نحيا نحن.
كم من طبيبٍ مات من أجل معالجة مرضاه!
وكم عالمٍ مات وهو يحاول أن يبتكر علاجًا لمرض يعاني منه

غيره.
وكم من كاتبٍ مات من أجل أن يوصل علمه للناس.
وكم من جنديٍ مات لكي يدافع عن أرضه.
وكم من حرةٍ ماتت لتدافع عن شرفها.
كلهم ماتوا ليس من أجلهم، بل من أجل غيرهم.
في هذه الأثناء، كانت قد حضرت "صامويلا"، ورأته منحنيًا، فرآها هو أيضاً وبدأ ينظر لها ويقول لها:
لمَ؟
لمَ أنت هكذا؟
لمَ لمْ تأخذي حقكِ منه؟
لمَ لمْ تأخذي حقكِ مني؟
لمَ لمْ تنفذي الأوامر وتنزعي عنه الجهاز وتمنحيه إلى من هم أصغر سنًا؟
لمَ أنتِ بريئة، لمَ كل هذه الإنسانية؟..
اهدأ فنحن من نساعد البشر على الشفاء، وليس على الموت.
إذا نزعته عنه فأنا أساعده على الموت، وإذا أبقيته فقد يشفيه ربه.
نحن كالدواء نساعد، ولكن لا نشفي وهذا واجبنا وقبل أن يكون واجبًا علينا وفق ما تمليه علينا مهنة الطب، فهذا واجب تمليه علينا إنسانيتنا وضميرنا.

الحل يكون بتقييم حالة كل مريض وليست بإعطاء أوامر توجب نزع الأجهزة التنفسية عن المرضى كبار السن وإعطائها لمن هم أصغر سنًا، فلو فعلنا ذلك لكان والدكَ في عداد الأموات.
وإنما وفق لضميرنا وإنسانيتنا يتوجب علينا أن تتحقق من حالة كل مريض، وإذا كانت حالته الصحية تسمح بأن يعيش دون جهاز تنفسي، هنا فقط يمكن نزعه الجهاز التنفسي عنه وإعطائه لمن هو بحاجته.
اقتنع "فرنسيسكو" بكلامها وأصدر تعليمات جديدة للأطباء بالعمل وفق نصيحة "صامويلا"، أي أن يتم نزع الجهاز التنفسي عن المرضى بعد دراسة حالة المريض والتأكد أنه يستطيع العيش بدونه.
تابع "فرنسيسكو" عمله بهذا الأسلوب، وبدأ قلبه يحن لـها، ويتذكر أيامه معها ولم يكتف بذلك، بل ذهب إلى بيت أبيه فقط لإحضار صورهما معًا.
في هذه الأثناء، كانت تتصل بـ "ماريو" وتخبره عن تفاصيل يومها يومًا بيوم، وكان كل يوم يزداد غيرةً عليها، وهي تسر بذلك، بل وتراوغه في بعض الأحيان.
لكن رغم غيرته عليها إلا أنه يثق بـها ثقة عمياء وهي تعلم ذلك.
مر اليوم وفي اليوم التالي وأثناء تواجدها في المستشفى،

استيقظ "ماريو"، وكان قد اشتاق لـها اشتياقا كثيرًا وزاد على اشتياقه غيرته من تواجد "فرنسيسكو" بقربها، فكتب لها كلامًا جميلًا ثم قام بإرسال هذا الكلام إليها برسالة هاتفية، وكان "فرنسيسكو" بالقرب منها ففتحت الرسالة وتبسمت.

على أثر الابتسامة الظاهرة على وجهها، سألها "فرنسيسكو" من المرسل فأخبرته بأنها من حبيبها "ماريو"، فابتلع ريقه وغادر المكان دون أن يتفوه بكلمة أخرى..

كانت الأيام تمر ببطئ شديد وحال "صامويلا" لم يتغير تقوم بعملها على أكمل وجه، وتقدم خدمة ممتازة إلى والد "فرنسيسكو".

فقام "فرنسيسكو" في أحد الأيام بإحضار بعض الزهور إليها فرفضتها، وطلبت منه أن يقدم الزهور إلى زوجته.

بعدها بدأت تلاحظ أن "فرنسيسكو" بدأ يتقرب منها، فحذرته، وأخبرته بأنها تعشق "ماريو" كثيرًا، وأنها ستبقى وفيةً له.

فهم "فرنسيسكو" مقصدها..

وقال لها: لا عليكَ فأنا أيضًا أحب زوجتي.

تبسمت وهي تقول له.. غريبة، أيها الرجال تحبون الواحدة وتقدمون الزهور إلى غيرها.

وكأن تقديم الزهور شيء عابر، ألا تعلمون أن تقديم الزهور إلى إحداهن قد يملككم يا معشر الرجال نصف قلب المرأة.

الورود ليست إلا دواء تقدمه الطبيعة لعلاج الروح، وبالذات لروح المرأة التي فيها من العطف، الحنان، الرقة والذوق.
كل هذه الصفات تكمن في جوهر الورود، فهما متماثلان وكأنهما طبقٌ وغطاء له.
لا تستهن بتقديم الورود وبالذات إلى النساء، فتقديمها كافٍ بتحريك مشاعر امرأة نسيت مشاعرها بفعل الزمن.
إن تقديم وردة كل يومٍ إلى المرأة، كافٍ بإشغال قلبها بكَ طوال اليوم.
فالورود غذاء الروح، كالكلام العذب الذي يقوله أحدهم لمن يعشق.
اذهب لزوجتكَ وقدم لها الورود لعلك تحرك مشاعرها التي قد تكون قتلتها متاعب الحياة.
ثم استطردت سائلةً: لكن أين والدتك؟
لم أرها..
والدتي تعيش وحدها منذ أن انفصلت عن والدي جراء خلافات عائلية.
وهل هناك حياة دون خلافات؟
المشاكل اليومية هي بحد ذاتها منفس الرجل والمرأة من الروتين اليومي في العمل ومن طريقة الحياة، ورغم كل المشاكل التي تفتعلها المرأة إلا أنها بسيطة فهي كالقهوة

لذتها بمرارتها، مرةٌ لمن كرهها لكنها لذيذة لمن عشقها.
وهل أخبرتها عن حالة والدك؟ .. لا... ولمَ لمْ تخبرها؟..
أعتقد أن مرض أبي لن يكون له أثر عليها.
نظرت إليه قائلةً: أتعتقد أن هناك امرأة قد تنسى رجلًا أحبته وعاشرته؟
المرأة كالطفل ذاكرتها معلقة بمن تبسم لها وعطف عليها.
لا توجد امرأة في الكون يا عزيزي قد تنسى رجلًا أحبته بصدق وإن كانت قد انفصلت عنه.
فالانفصال لم يكن يومًا مجرد ابتعادٍ جسدي، بل هو انفصال أرواح كانت قد تداخلت حتى صارت روحًا واحدة.
كم منا تزوج لمجرد الزواج فقط، تزوج وبقيت روحه عذراء لأن روحه لم تلامس روح من ارتبط به.
فالعذرية ليست بالجسد، وإنما العذراء هي عذراء الروح. فالمرأة تبقى عذراء ما لم تمنح روحها حقًا لمن ارتبطت به، حتى لو أنجبت منه ألف طفل.
كانت عيناه تملؤهما نظرات إعجاب، تترقبان بشغف ما ستقوله.. يا لها من فلسفةٍ رائعة.
.. أنا لم أنسكَ، المرأة لا تنسى من أحبته بصدق.
وأنا أحببتكَ بصدق، ولم أفر كما قلت لزوجتكَ.
ولكن بعد أن دفنتني الحياة بفعل الأحداث التي حدثت، تم

إحيائي من قبل "ماريو" واستطاع بحبه لي أن يقوم بالاستيطان في قلبي، بل وتملكها لدرجة أن هذا القلب لا يشعر إلا بعد أن يطلب الإذن منه.

أخذت أنفاسها وأكملت المرأة قد تعيش أكثر من حياة في هذا العمر، فهي تحيا من جديد في كل مرة تحب فيها، ولكن لا تنسى من أحبته بصدق.

لذلك قم بإخبار والدتك، لعل يكون هناك فرصة لترى والدكَ.

بالفعل قام "فرنسيسكو" بإخبار والدته، التي حزنت لما حصل، وطلبت منه أن يرتب لها موعدًا لترى والده.

قام "فرنسيسكو" بمساعدتها بترتيب ذلك، فوالده يقطن في الطابق العلوي وكان يتوجب على والدته أن تراه من النافذة، فقام بطلب استثنائي أن يسمح لوالدته أن ترى والده عبر استخدام الرافعة لتصل والدته إلى النافذة المطلة على غرفة والده المصاب.

فرح والده بزوجته السابقة عندما رآها وبدأ يلوح لها بيده كالطفل الذي رأى والدته، وهي ترسل له القبل مستخدمةً يداها كأنه ابنها.

قال "فرنسيسكو" لـ "صامويلا": لقد كنت محقة بما قلته لي.

أوصته "صامويلا" بزوجته وقالت له: إن الروتين اليومي قد يقضي على الإنسان وليس على الحب فقط، لذلك الحب يحتاج

دائمًا للضخ من جديد.
فالحب كالزرع قد يموت بحبة ترابٍ زائدة، وقد ينعش إذا ما تم سقيانه باستمرار.
وأبرز وسائل الضخ هي: الورود، عشاء على ضفاف نهر جميل، هدية، قبلةٌ عميقة، سهرةٌ رومانسية، ركضٌ تحت المطر والتصرف كالصبية، اتصال اطمئنان في وقتٍ غيرِ متوقع.
هز "فرنسيسكو" برأسه، ومضى إلى معاودة عمله، في حين اتصلت هي بـحبيبها التي سألته عن حاله، واطمأنت عليه.
وسألته عن طعامه وصحته وإذا ما كان يحظى بوقتٍ كافٍ من النوم.
أحس "ماريو" بسعادة وقال لها: لقد اشتاق كل شيء لكِ..
ابتسمت بسبب سؤاله واغمضت عيناها.. الروح التي معي اشتاقت للجسد الذي معكَ، فهذا النصف لا يشعر إلا إذا اتحد بنصفكَ.
ثم سألها عن "فرنسيسكو" وكيف تجري الأمور معه؟
فأخبرته عما دار بينهما من أحاديث، وسُر بذلك خصوصًا أنه اطمأن أنه ما زال ساكنًا في قلبها.
وبعد ذلك بعده أيام، بدأ والد "فرنسيسكو" بالتحسن وقام "فرنسيسكو" بنزع الجهاز التنفسي عن والده بحضور "صامويلا" وزوجته.

نظر والد "فرنسيسكو" إلى "صامويلا"، وقال لها: أنتِ.
أنتِ من أنقذتني، رغم كل الأذى الذي سببته لعائلتكِ.
ضحكت وقالت له: طالما أنتَ تذكرتني، فأنتَ بخير، حمدًا للّه.
تفاجأت زوجته مما يحدث وقالت لـ "صامويلا": أنت حبيبة "فرنسيسكو" السابقة؟
فردت.. هذا وقتٌ مضى عليه سنين وأنا الآن مرتبطة بشخصٍ آخر.
قال لها والد "فرنسيسكو": أعتقد أنه ملاك، فالملائكة هي من تعشق بعضها البعض.
شكرها "فرنسيسكو" على ما فعلته من أجل والده، فجاء ردها بصوتها الهادئ.. هذا واجبي كإنسانة قبل كل شيء.
حينئذ طلب منها والده أن تجلس بجانبه، فجلست.
ثم راح يحدثها ويقول لها: عندما أخرج من هنا، سأقوم بتعويضكِ عن كل الأذى الذي سببته لعائلتكِ.
سُر "فرنسيسكو" بما سمعه من والده لكنها جاء ردها سريعاً: التعويض الذي يعوضني عن كل ما ما مضئ هو أن تقوم بالإحسان لزوجتكَ، أما أنا أخذت نصيبي من هذه الدنيا.
هذا قدر، وأنا قد رضيت به وأن اللّه قد عوضني بشخص أحبه ويحبني.
واكلمت.. أود أن تجيبني عن سؤال يخطر في بالي منذ أن

رحلت من إيطاليا.

فهز رأسه وهو يقول أكيد سأجيبك.

قالت أتعلم بما أفكر..

.. أنا يا ابنتي قد هرمت ولي من الخبرة ما تجعلني أقرأ بما تفكرين به.

وأكمل، تريدين أن تعرفي لما قد فعلت كل ذلك؟ ولما قد اخترت طريق الشر فقسوت على كل من حولي وحتى على نفسي؟

فقالت.. نعم، هذا سؤالي.

فأجابها بأنه ولد بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، وكانت إيطاليا مدمرة بالكامل وكان والده جنديًا من أحد ضحايا هذه الحرب.

فكانت الدنيا قاسية عليهم، وأكمل لم نكن نمتلك ثمن الغذاء، وخصوصًا أن الدولة الإيطالية لم تكن تستطيع تأمين احتياجاتنا نظرًا لخسارة هذه الحرب.

فكنت مجبرًا على أن أترك المدرسة لكي أقوم بالإنفاق على والدتي وأختٍ بعد أن تركهما لي أبي.

فعملت في الحفريات، وبعد طردي من العمل لصغر سني حاولت جاهدًا للحصول على أي عمل أعيش منه أنا وعائلتي، ولكن كان ذلك دون جدوى.

فلم يكن أمامي طريق سوى طريق السرقة، ومنها إلى المخدرات ومنها إلى العمل مع المافيات.
امتلكت الكثير ولأجل الحفاظ على أملاكي وأعمالي قسوت على الكثير من الناس ومنهم والدكِ.
لكن رغم كل هذا لم أكن مرتاح البال وكنت أعيش دائمًا في حالة قلق.
كان هذا الطريق صعبًا والخروج منه في المنتصف يعني أني قد حكمت على نفسي وعلى عائلتي بالموت.
فقالت "صامويلا": الموت حقيقة مؤلمة، بل وقد تكون الحقيقة الأكثر ألمًا في هذا الوجود.
قال لـها هذا كله أصبح من الماضي والآن وأنا على حافة الموت يجب أن أقدم شيئًا لكِ ولـ "فرنسيسكو" ولإيطاليا بأكملها.
سُر "فرنسيسكو" بما سمعه من والده، وأخبره أن إيطاليا تعاني من نقص في المستلزمات الطبية.
فطلب والده أن يخبر مدير مصانعه بتحويل مصانعه لمصانع لصنع الكمامات الطبية، وتخصيص مبلغ لاستيراد أجهزة تنفسية من الخارج.
فسعدت "صامويلا" بالخطوات التي قام بها والد "فرنسيسكو" نظرًا للنقص في هذه المواد في إيطاليا.
باشرت مصانع والد "فرنسيسكو" بالعمل على تصنيع الكمامات

الطبية، وأخبرت "صامويلا" "ماريو" بما كان قد أقدم عليه والد "فرنسيسكو" الذي سُر بما سمع.

وبعد خروج والد "فرنسيسكو" من المستشفى تحدثت "صامويلا" مع زملائها ومن يعملون معها في المستسفى وأخبرتهم بوجوب التجمع لإلقاء التحية له.

تجمعت الطواقم الطبية في المستشفى، وكانت من بينهم والدة "فرنسيسكو".

قامت الطواقم الطبية بالتصفيق لوالد "فرنسيسكو" وتحيته تحية الأبطال.

ومنذ اليوم الأول لخروجه من المستشفى أوصى والد "فرنسيسكو" العاملين في مطاعمه على أن يقوموا يوميًا بتحضير الطعام وإحضاره ساخنًا لجميع الطواقم الطبية التي تعمل في مستشفيات لومبارديا.

تابعت الطواقم الطبية ومن بينها "صامويلا" كفاحها ضد هذا المرض الخبيث.

وكانت تعمل كالمعتاد وتذهب إلى منزلها تتحدث مع "ماريو" هاتفيًا.

وذات يوم، وأثناء عودتها إلى بيتها تفاجأت بسيدة مسنة ساقطة على الأرض.

فركضت إليها وقامت بإسعافها، ولكنها لم تتخذ الإجراءات

الصحية والوقائية اللازمة.
بعد ساعات أحست بارتفاع في حرارتها والكثير من السعال الغريب.
لم تأبه لحالتها الصحية.
وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى عملها كالمعتاد.
وعند اشتداد المرض عليها، رآها "فرنسيسكو" فدخل في قلبه الشك حول حالتها.
طلب منها أن تقوم بإجراءات الفحوصات اللازمة لفحص الكورونا، لكنها رفضت في البداية وقالت له: إنه مجرد إرهاق وسأكون بخير في الأيام المقبلة.
لكن وأثناء عملها في المستشفى سقطت أرضًا، فتم نقلها إلى أحد الغرف، وهناك أجرى لها "فرنسيسكو" الفحوص الطبية.
وبعد يومين من مكوثها في المستشفى تبين من خلال نتائج الفحوصات أنها مصابة بهذا الفيروس الخبيث.
أبلغها "فرنسيسكو" بنتيجة الفحص، وطلب منها أن تذهب لتعزل نفسها في المنزل، وألا تلتقي بأحد لكيلا تسبب لهم العدوى.
نُقلت إلى منزلها وسط حالة من الحزن خيمت على الحي الذي تقطن به.
وجه لها جيرانها التحية عبر الشرفات وراحوا يقولون لها:

ستكونين بخير وإنها أيامًا وسوف تمضي.
في هذه الأثناء، كان "ماريو" قد حاول الاتصال بـها كثيرًا إلا أنها لم تكن تجيبه.
فسيطرت عليه حالة من القلق، وسيطرت عليها حالة من الحزن والكآبة.
بقيت لثلاثة أيام تفكر في الأشخاص الذين قابلتهم وإذا ما كانت قد نقلت لأحدهم العدوى.
لم تستحم، لم تنم، ولم تأكل شيئًا طوال هذه المدة وكل ما تفعله هو التحديق في الجدران.
وفي اليوم الرابع لمكوثها في المنزل، أحضرت ورقة وكتبت وصيتها:
في هذه الحرب وجود شخص مريض قد يقوم بتدمير شعب بأكمله، وبما أنه لا يوجد علاج لهذا المرض سوى موت صاحبه، فالأفضل للبشرية والإنسانية أن يموت هذا الشخص على أن يقوم بنقل العدوى إلى أشخاص آخرين ومنهم إلى غيرهم وبالتالي التسبب بمجزرة للبشرية.
من هنا عزمت على الانتحار.
وختمت بالكتابة: سامحني يا "ماريو"، سأتركك وحيدًا ولعلنا نلتقي في دنيا أخرى.
ثم قامت بترك الرسالة على الطاولة، وقامت بإحضار حبل

وشنقت نفسها في منزلها.
بعد عدة أيام حاول أحد الجيران أن يطمئن عليها، فطرق بابها، ولكن لم يفتح له أحد، فشم رائحةً غريبة في شقتها، فقام هذا الأخير بإبلاغ الشرطة.
حضر "ماركو"، ولم يصدق ما رآه جثتها معلقة داخل الشقة.
فخيم عليه صمت ثقيل، يحمله حزنٌ لا يُوصف، ولكنه كان يجب عليه إبلاغ الجيران و"فرنسيسكو" وطاقم المستشفى الذين صدموا بما سمعوا.
قام "ماركو" بمساعدة "فرنسيسكو" ووالده بنقل جثتها إلى المستشفى وتم إيداعها في ثلاجة الموتى.
طلب "ماركو" حرق جثتها مع الموتى الآخرين إلا أن والد "فرنسيسكو" رفض ذلك، وطالب بدفنها في أحد المدافن.
في يوم دفنها، حضر الجميع من طواقم طبية، وشرطة وبعض من كانوا مرضى وقاموا بدفنها..
وبعد محاولات "ماريو" الاتصال بـها لأكثر من مرة، أصابه وسواس حول حالتها وقرر أن يتصل بأحد معارفه ليقوم بالاطمئنان عليها والحصول على أخبارها، ولكن كان ذلك دون جدوى.
اعتقد "ماريو" أنها قررت أن تقطع علاقته به وأنها عادت لـ "فرنسيسكو" حبيبها السابق، فحزن لذلك لكنه وعدها بأنه

سيبقى على حبها مهما طال الزمن.
واستذكرها بالقول: حتى لو كنتي قد أحببت غيري، فإن هناك عهدًا أخذته على نفسي بأني سأبقى أحبك.
لم أطلب يومًا منكِ أن تحبيني، ولكن يكفي لإشباع رغباتي أني أحبك وأبقى على تذكر ذلك طالما أني أتنفس.
وأثناء وجود "ماريو" في المعهد سمع زملاءه يتحدثون عن ممرضةٍ إيطالية شنقت نفسها.
فقام كالمجنون يتحدث لزملائه، فأخبره زميله أنه شاهد ذلك عبر مواقع التواصل الاجتماعي.
طلب منه "ماريو" أن يبحث له عن الخبر، ففعل.
وما إن رأى "ماريو" صورة "صامويلا" وهي معلقة داخل منزل جدتها، حتى وقع أرضا..
حاول زملاؤه أن يقدموا له الرعاية الطبية ونجحت محاولتهم بإفاقته، وما إن أفاق حتى تم نقله إلى المنزل.
في المنزل قام أحد زملائه بإعطائه إبرة مخدر لكي ينام.
نام "ماريو"..
وفي صباح اليوم التالي، نهض من نومه ورأسه مثقل كأن الليل لم يمنحه راحة.
كانت الكلمات التي سمعها الليلة الماضية لا تزال تطرق ذهنه بقسوة..

لقد رحلت، حبيبته تركته إلى الأبد.
لن يراها مجددًا، ولن يسمع صوتها، ولن يشعر بقربها كما اعتاد،
سيمضي العمر وحيدًا، يحمل صداها في قلبه، ويتذكّر ملامحها في تفاصيل الفراغ..
وب مرور فترة ليست بكبيرة.. كانت الأمور قد بدأت تتحسن وتم السماح بالنقل الجوي مرة في الأسبوع إلى إيطاليا.
رغم سوء حالته الصحية، إلا أنه قرر السفر إلى إيطاليا في الرحلة المقبلة التي كانت في اليوم التالي من الحجز.
طارت طائرة "ماريو" إلى ميلانو، لكن الجيش الإيطالي منعه من الدخول، وطلب منه البقاء لمدة ١٤ يومًا في الحجر الخاص بالمسافرين، فتظاهر أنه سقط أرضًا لتقوم فرق الإنقاذ لتنقله إلى أقرب مستشفى والتي كانت داخل حدود إقليم لومبارديا.
وما إن أوصلته عربة الإسعاف إلى إحدى المستشفيات حتى وقف، ومشى على قدميه.
وأثناء مشيه، طلب من أحد العابرين بسيارته أن يأخذه في طريقه ليوصله إلى مدينة بيرجامو.
فقام سائق السيارة بإيصاله إلى بيرجامو.
استدل هناك على منزل جدة "صامويلا" بعد أن أرشده أحدهم.
وعند وصوله، سأل الجيران عن كيفية الدخول لمنزل الجدة

"فرنسيسكا"، فأخبروه أن هذا ممنوع وعليه أن يذهب لسؤال الشرطة.

فعل ما طلبه منه الجيران، وذهب إلى القسم وعندما رآه "ماركو" وتعرف عليه، طلب منه أن يستريح، وابلغة أن يوجد رسالة تركتها له قبل وفاتها..

فأعطاه الرسالة التي كتب فيها: سامحني يا "ماريو"... سأتركك وحيدًا.

أجهش في البكاء، وسأله عن مكان جثتها.

فأخبره أنه تم دفنها، هنا في بيرجامو.

فطلب منه أن ينقله ويرشده إلى مكان قبرها، ففعل.

وبعد أن وصلا إلى مكان قبرها، طلب "ماريو" منه أن يدعه لوحده معها، فنفذ "ماركو" رغبته ورحل من المكان.

بدا يهمس لـها بكلمات مختنقة، والدموع تغمر وجهه، تتساقط على تراب القبر كما لو كانت آخر ما تبقّى له من حياة.

وبعد ساعات، وصل "فرنسيسكو" برفقة عائلته إلى المقبرة، يحملون باقة من الزهور البيضاء.

وحين اقتربوا من القبر، وجدوا "ماريو" ملقًى فوقه، كأن روحه قررت أن ترحل إلى حيث ارتاحت روحها.

صمت الجميع لحظة، بينما وقف والد "فرنسيسكو" يتأمل المشهد، ثم قال بنبرة خافتة امتزجت بالحزن:

لقد تعاهدا على البقاء سويًا، وها هما يلتقيان في عالمٍ آخر، لا فراق فيه.

رفع رأسه للسماء والدموع تملأ عيناه:

هكذا هي الحياة، مجرّد تعارفٍ مؤقت على من نحب، بينما اللقاء الدائم بهم هناك، حيث لا وداع.

الإنسانية القاتلة.

فوسائل التواصل الاجتماعي ما هي إلا منابر أعطيت للناس لتوثيق تفاهاتهم، فيتحدث فيها الحمقى ويحظون بمتابعة الملايين، لذلك إن تلفيق الأخبار قد يكون شيئًا سهلًا لهم.

هذه الوسائل، فبدل أن تكون شيئًا جميلًا ليتواصل الناس من خلالها، أصبحت شيئًا تافهًا ومنابر للتحريض، والبغضاء، ونشر الأكاذيب، والترويج للكراهية، والتعصب والتكفير.

بِبْلُومَانيَا.

9 789779 942520

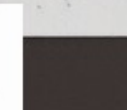

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
15 شارع السباق - مول الميريلاند - هليوبوليس - القاهرة

amazon
Google Play
bibliomania.eg
www.bibliomaniapublishing.com